
شال قطيفة


الطبعة
الثالثة

عنوان الكتاب: شَالٌ قَطَيفَةٌ

تأليف: مصطفى فتحي

الترقيم الدولي للكتاب: ISBN: 978 - 977 - 85890 - 2 - 3

الطبعة الأولى – 2021   رقم الإيداع: 2021/8839

تصحيح لغوي: د. مريم عبد الجليل

تصميم الغلاف: محمود الطرابيلي

الإخراج الفني والمونتاج: إيمان الجوهري



Tel :(+2) 01288890065

www.shams-group.net



شَالٌ قَطِيفَةٌ

«ما أريد أن يعرفه العالم عن أمي»

مصطفى فتحي...

شكر واجب

شكرًا للصديق الصحافي محمد الزلباني على كل الدعم والمساعدة التي قدَّمها بكل حب حتى خرج هذا الكتاب إلى النور. لو اعتبرنا هذا الكتاب مشروعًا أدبيًّا؛ فبالتأكيد الزلباني هو مديره الموهوب.

شكرًا للكاتب المبدع عمر طاهرعلى تحمسه للكتاب، وعلى ملاحظاته القيِّمة، وعلى عنوان «شال قطيفة» الذي اختاره للكتاب.

شكرًا للصديق الرائع مينا عادل جيد، الذي كان لملاحظاته المهمة دور كبير في أن يصبح هذا العمل أجمل وأرقى.

شكرًا للفنان الموهوب محمود طرابيلي الذي صمَّم لي الغلاف الذي حلمت به، وصنع ذلك بكل حب.

وكل الشكر للفنانة هبة علي التي رسمت لوحة جميلة لوالدتي دون أن تعرف أنني أعمل على هذا الكتاب، وهي اللوحة التي اخترت أن تكون على الغلاف.





أعدك بأنه ليس كتابًا عن الألم...

بعد وفاة أمي شعرت بغربة شديدة، اختبرت معنى الاكتئاب لأول مرة في حياتي، رفض كلٌّ من عقلي وقلبي الاعتراف بأن هذه السيدة العظيمة التي كانت سندًا حقيقيًا لي في هذه الحياة قد غادرت بالفعل دنياي، ولن أراها أو أسمع صوتها مرة أخرى.

لكني لم أترك نفسي لهذه الحالة كثيرًا، اتخذت خطوات جادة لأن أتعايش مع حقيقة الموت، أو كي أكون دقيقًا، أنظر للموت من زاوية مختلفة، قررت ألا أترك نفسي للحزن الذي هو وحش مرعب يفوق في وحشيته كل وحوش القصص الخيالية التي في حكايات شهرزاد لشهريار، أو تلك التي جمعها الأخوان جريم في قصصهم التي أعجبت أطفال العالم، وكل الوحوش التي خرجت من صفحات الأساطير الإغريقية العظيمة.

لكـن فـي رحلتـي للتعافـي لـم أكـن بمفـردي، سـاعدني رب عظيـم تفضَّـل وأرسـل لـي عـدة رسـائل مفادهـا أن أمـي لـم تتـرك عالمـي بعـد موتهـا مثلمـا كنـت أتصـور، مـا زالـت موجـودة ولكـن فـي صـورة أخـرى وقودهـا هـو بركتهـا ودعاؤهـا وحبهـا لـي.

سـاعدني كذلـك طبيـب نفسـي، وأصدقـاء، وإيمـان بـأن قلـب أمـي رحمهـا الله أكبـر بكثيـر مـن أن يتركنـي بمفـردي فـي هـذه الحيـاة حتـى لـو غابـت صاحبتـه ـ بجسـدها فقـط - عـن عالمـي المعقـد.

أمـي كانـت أشـبه بصـوت جميـل وسـط ضجيـج الحيـاة، لا أجـد لوصفهـا أفضـل ممـا قالـه الملحـن الراحـل ريـاض السـنباطي (٣٠ نوفمبـر ١٩٠٦- ١٠ سـبتمبر١٩٨١) حيـن وصـف صـوت المطربـة الجميلـة ليلـى مـراد بأنـه صـوت شـفَّاف خـالٍ مـن الشـوائب، وخـالٍ مـن أيِّ مـادة غريبـة، صـوت بـه قسـط كبيـر مـن الحنـان، صـوت عطـوف يجذبـك إليـه.

أمـي كانـت مثـل ليلـى مـراد حيـن وصفهـا السـنباطي، خاليـة مـن الألـوان الصناعيـة، مثـل حليـب الأريـاف أيـام زمـان؛ بخيـره وبركتـه، حليـب كلـه قشـدة، تسـمع صوتهـا فتـدرك الفـرق الكبيـر بيـن

القطـن والأليـاف الصناعيـة، وبيـن الذهـب والنحـاس.

الآن أنـا مؤمـن تمامًـا أن أمـي مـا زالـت هنـا، مثـل عصفـور جميـل فـي السـماء لا أحتـاج للإمسـاك بـه بيـدي كـي أصـدق أنـه موجـود وليـس خيـالًا، ومثـل فراشـة جميلـة التقطتهـا كاميـرا مصـوِّر موهـوب فـي إحـدى غابـات العالـم ولـم أكـن معـه، لكنـي مصـدق أنهـا حقيقـة، وليسـت مصنوعـة ببرامـج تحريـر الصـور، ومثـل سـمكة ملونـة أراهـا وهـي تعـوم تحـت ميـاه نقيـة لدرجـة مذهلـة، ولا أحتـاج للمسـها كـي أتأكـد أنهـا حقيقـة.

أنـا مثـل الأديـب اليابانـي العظيـم يوكيـو ميشـيما أومـن أن «الأسـلاف يحيـون داخلـي».

هـذا ليـس كتابًـا عـن الألـم أو الحـزن الـذي يمكـن أن يسـببه غيـاب شـخص عزيـز علينـا، لكنـه كتـاب عـن الأمـل والحـب، والسـعادة والفرحـة، والحنيـن إلـى مـن نحبهـم.

مصطفى فتحي..

مـن شـرفة شـقة أمـي فـي بيتنـا القديـم ـ الأول مـن أكتوبـر ٢٠٢٠.





فتاة جميلة من نزلة عمار..

في اللغة العربية «رابحة» هو اسم علم مؤنث، يعني الغانمة في حياتها وصحتها ومالها، لكني لا أظن أبدًا أن جدتي لأمي ـ رحمها الله- وهي السيدة الريفية البسيطة التي لم تحصل على أيِّ قدرٍ من التعليم في حياتها، كانت تعرف هذه المعلومة حين اختارت هذا الاسم لفتاتها الجميلة يوم ولادتها في ٢١ أكتوبر من العام ١٩٤٦.

«رابحة» اسم مميز، غير شائع، وجميل كما ترون، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة لي في طفولتي؛ إذ كنت أخجل من أن أخبر به زملائي في فترة الدراسة الابتدائية والإعدادية وحتى الثانوية، والحقيقة أنني لم أتصالح مع الاسم سوى بعد سنوات طويلة، حين بدأت أمي تعاني من المرض، وتصبح ضيفةً دائمةً على عيادات الأطباء، وكنت أنا معها دائمًا في رحلتها هذه، وكأني عكَّازها

الـذي تتسـنَّد عليـه حتـى لا تقـع، أُملـي اسـمها للأطبـاء كي يدوِّنـوه علـى روشـتات تحمـل أسـماء أدويـة كنـت أتمنـى حينهـا أن تخفـف تعـب أمـي، لكنهـا لـم تفعـل أبـدًا.

لـم تعـرف جدتـي «بلـد» أبـدًا لمـاذا اختـارت اسـم «رابحـة» لطفلتهـا الجميلـة التـي هـي «أمـي»، كانـت تكتفـي بـأن تحكـي لنـا فـي طفولتنـا بأنهـا أحبـت هـذا الاسـم، ورأت وقتهـا أنـه مناسـب لأمـي مـن دون سـبب.

أومـن أن لـكل إنسـان نصيـب مـن اسـمه، وأمـي كانـت رابحـة فـي حياتهـا، ربحـت أم طيبـة «جدتـي»، وزوج حنـون أحبهـا مـن قلبـه واحترمهـا، وأبنـاء ذابـوا عشـقًا فـي كل تفاصيلهـا، وحيـاة كريمـة مليئـة بالـرزق والخيـر، وقبـل كل شـيء ربحـت حـب كل مـن عرفهـا عـن قـرب.

فـي بيـت نظيـف وهـادئ بقريـة فقيـرة كانـت معدومـة الخدمـات وقتهـا تُدْعـى نزلـة عمـار، التابعـة لمحافظـة سـوهاج المصريـة ولـدت أمـي، كان البيـت مصنوعًـا فـي أغلبـه مـن الطيـن، وكان يحـوي برجًـا صغيـرًا للحمـام أتذكـره حتـى اليـوم، رغـم أن البيـت نفسـه هدمـه أولاد خالـي «زيـن الديـن» ـ رحمـه الله ـ وبنـوا مكانـه بيتًـا مـن عـدة طوابـق بمـواد بنـاء حديثـة.

جدتـي «بلـد» رحلـت عـن عالمنـا حيـن كنـت طفـلًا صغيـرًا، لكنـي مـا زلـت أتذكـر كل تفاصيـل وجههـا الجميـل الـذي يتشـابه ووجـه أمـي بشـكل مـا، كانـت جدتـي نسـخة طبـق الأصـل فـي الشـكل مـن الممثلـة المصريـة العظيمـة «ثريـا فخـري»، حتـى فـي صوتهـا وطريقـة لبسـها وطيبتهـا فـي أغلـب أدوارهـا، أمـا والـد أمـي فـلا أعـرف أيَّ معلومـة عنـه، فقـط أعـرف أن اسـمه «أحمـد»، توفِّـي بعـد ولادة أمـي بسـنوات قليلـة، وهـي نفسـها لا تتذكـر وجهـه الـذي ينتمـي لحقبـة لـم يكـن التصويـر الفوتوغرافـي أمـرًا متاحًـا لأسـرة فقيـرة حينهـا، وبالتالـي لـم أشـاهد أيَّ صـورة لوالـد أمـي فـي حياتـي، كمـا لـم تتحـدث أمـي عنـه أمامـي أبـدًا.

«رابحــة» كانــت صبيــة جميلــة مــن الداخــل والخـارج أيضًـا؛ فهـي مشـرقة، ملامـح وجههـا مبهجـة، ابتسـامتها مميـزة، حكـى لـي والـدي أكثـر مـن مـرة أنـه حيـن رآهـا لأول مـرة وكانـت حينهـا فـي الرابعـة عشـر مـن عمرهـا، شـكر ربـه لأنـه رزقـه بهـا، رغـم أنهـا لـم تكـن نفـس الفتـاة التـي رغـب فـي أن يتزوجهـا؛ ولهـذا حكايـة تسـتحق أن تُـرْوَى.

لـم يكـن مـن المفتـرض أن يتـزوج أبـي مـن أمـي،

بل من شقيقتها الأكبر منها عطيات، والتي مرَّت أمامه ذات يوم حين كان جالسًا مع أحد أقربائه في واحد من شوارع قريته «مشطا»، وهي قرية لا تبعد عن قرية أمي سوى نحو خمس عشرة دقيقة مشيًا على الأقدام، وكان حينها شابًا في بداية العشرينيات.

كانت خالتي عطيات ـ وهي تشبه أمي كثيرًا بالمناسبة- تحمل فوق رأسها «قُفة» مليئة بالقمح، كانت متوجهة بها إلى المطحن الوحيد في المنطقة كي تحولها إلى دقيق.

أعجب أبي بالطفلة الجميلة عطيات، وسأل عنها الجميع حتى عرف أين تعيش، وطلب من والدته ـ جدتي سمانة- أن تذهب وتطلب يدها له، وبالفعل توجهت جدتي في اليوم التالي إلى منزل أمي، وقابلت عائلتها وتعرفت بهم، لكنها هناك علمت أن عطيات مخطوبة بالفعل، لكن مثل أيِّ أم أصيلة لم تخرج جدتي من بيت عائلة أمي إلا بعد أن عرفت أن هناك فتاة جميلة أخرى ليست مرتبطة، وعمرها أربعة عشر عامًا، واسمها «رابحة».

حين وصفت جدتي ملامح وصفات «رابحة» لأبي، شعر براحة غريبة تجاهها، ووافق أن يتزوجها،

وكانــت العــادات حينهــا ألا يــرى العريــس عروســه إلا ليلــة الدخلــة.

توجـه أبـي إلـى مركـز «طمـا»؛ ليشـتري شـبكة أمـي وبعـض الهدايـا لهـا، اشـترى لهـا خلخـالًا مـن الفضـة كان ثمنـه حينهـا ثمانـي جنيهـات، وقرطًـا مـن الذهـب كان ثمنـه سـتة جنيهـات، كمـا اشـترى صندوقًـا خشـبيًّا كبيـرًا بـه شـال جميـل مـن القطيفـة.

عــاش الخلخــال الفضــة مــع أمــي لســنوات طويلــة، لكنهــا باعتــه فــي نهايــة التســعينيات، بمبلــغ ثــلاث مئــة جنيــهٍ مصــري، أمــا الشــال القطيفــة فظــل مــع أمــي بضعــة ســنوات قبــل أن تقــرر أن تهديــه لســيدة فقيــرة، وهــي العــادة التــي لازمتهــا حتــى آخــر يــوم فــي عمرهــا، تتبــرع بملابســها القديمــة لمــن يحتاجهــا.

قبـل زواجهـا فـي العـام ١٩٦٠، كانـت أمـي تعمـل فـي مهنـة شـهيرة فـي الصعيـد مارسـها تقريبًـا كل أطفـال الجنـوب، وهـي إزالـة الكائنـات الحيـة الضـارة مـن أوراق نبـات القطـن، وكان يتـم انتـزاع هـذه الكائنـات ووضعهـا فـي عبـوة مـن الكبريـت مقابـل مبلـغ مالـي بسـيط وقتهـا، كان يطلـق علـى هـذه المهنـة اسـم «لـم اللُّطعـة».

لـم تحصـل أمـي علـى أيِّ قـدرٍ- حتـى ولـو بسـيط - مـن التعليـم الكلاسـيكي الـذي هـو عبـارة عـن فصـول دراسـية ومدرسـات ومدرسـين وشـهادات تعتمدهـا الحكومـة، وكان ذهـاب الفتـاة فـي الصعيـد إلـى الكتَّـاب فـي هـذه الحقبـة أمـر يوصـف بالعيـب، وحتـى وفاتهـا لـم تسـتطع أمـي القـراءة أو الكتابـة، وفشـلت كل محـاولات إقناعنـا لهـا أن تتعلـم، علـى عكـس والـدي الـذي كان يقـرأ ويكتـب حتـى ولـو بطريقـة بسـيطة.

تـزوج أبـي مـن أمـي وعاشـا فـي بيـت جدتـي لأبـي بقريـة «مشـطا»، وفـي هـذا البيـت أنجبـا شـقيقتي الكبـرى عصمـت وشـقيقي الأكبـر علـي، لكـن لـم تحـب أمـي أبـدًا بيـت جدتـي لأبـي، لـم تشـعر بالراحـة فيـه، وحكـت لـي كثيـرًا أن جدتـي رحمهـا الله كانـت لا تحبهـا وتعاملهـا بطريقـة جافـة، لكنهـا رغـم ذلـك تحملـت وقضـت فـي هـذا البيـت عاميـن مـن عمرهـا.

جـاءت أمـي مـع أبـي إلـى القاهـرة فـي العـام ١٩٦٢، ومعهمـا شـقيقتي عصمـت وشـقيقي علـي، وبعـد وصولهـم إلـى محافظـة الجيـزة عاشـوا معًـا فـي شـقة بسـيطة فـي الطابـق الأرضـي مكونـة مـن غرفـة واحـدة وصالـة، فيمـا كان حمـام هـذه الشـقة خارجهـا

وبالتحديد أسفل درج البيت، كانت هذه الشقة في حارة ضيقة اسمها البلتاجي بمنطقة بولاق الدكرور.

لكن لم تكره أمي جدتي لأبي أبدًا، وبعد سنوات من استقرارها في القاهرة بدأت تزورها وتحمل لها أجمل الهدايا، وتحسنت علاقتهما بدرجة كبيرة، لدرجة أن أمي بكت كثيرًا عند وفاة جدتي لأبي.

في العاصمة المصرية، بدأ أبي العمل في مخبز بلدي لسنوات كعامل، لكنه لم يستمر طويلًا في هذه المهنة، واشترى متجرًا صغيرًا في شارع تجاري في بولاق الدكرور اسمه شارع همفرس، كان يبيع فيه الخبز، لكنه تركه واشترى متجرًا آخر في نفس الشارع مارس فيه مهنة البقالة، وكان هذا المتجر الصغير هو «فتحة الخير» عليه كما يقولون؛ إذ جنى منه الكثير من الأموال، وبعد سنوات استطاع شراء قطعة أرض صغيرة في بولاق الدكرور بنى عليها بيتًا بسيطًا، ومن بعدها بدأت رحلة نجاحه، وامتلاكه لكثير من المنازل والمشاريع التجارية.

يقول والدي: إن أمي هي السبب في أنه فعل كل شيء جميل في حياته، هي من شجعه على

القدوم للعاصمة، وهي من شجعه على العمل في مخبز، وهي من شجعه بعد ذلك على ترك هذه المهنة وشراء متجر، وهي من شجعته على بناء منزل خاص، باختصار كل شيء جميل في حياة أبي كان بتشجيع من أمي.

ظهر التلفاز في مصر لأول مرة عام ١٩٦٠، وكان ثورة عظيمة في مصر وقتها، لكنه لم يدخل كل بيوت المصريين حينها بسبب ارتفاع سعره، لكن حين سمعت أمي عن التلفاز لأول مرة أقنعت أبي بأن يشتريه لها، وحين أخبرها أنه غالٍ، أقنعته بأن يشتريه لنا بالتقسيط، وبالفعل اشترى تلفازًا أبيض وأسود، ويقال إن أسرتي هي أول أسرة تشتري تلفازًا في شارع غلَّاب حسين الشهير في بولاق الدكرور، وكانت الناس تتجمع أمام بيتنا لمشاهدة المسلسل العربي، أو كما كان يطلق عليه وقتها «التمثيلية»، والبرامج الأخرى، وبعد سنوات حين ظهر التلفاز الملوَّن، اشترت أمي واحدًا من ماركة توشيبا بحجم ١٤ بوصة.

أحبت أمي التلفاز، وكانت تستمتع بمشاهدة البرامج والمسلسلات والأفلام عليه، خصوصًا تلك

التـي تحـوي أغانـي ورقصًـا، كان يومهـا يبـدأ بتشـغيل التلفـاز، وينتهـي حيـن تغلقـه قبـل النـوم.

الجميـل أن التلفـاز الملـوَّن الأول الـذي اشـترته أمـي قبـل عشـرات السـنين مـا يـزال لدينـا، قررنـا أن نحتفـظ بـه ليذكرنـا بهـا، وفـي العـام ٢٠٢٠ قـام شـقيقي علـي بإصلاحـه، واتفقنـا أن يظـل معنـا ونورِّثـه لأبنائنـا، وألا نتخلـص منـه أبـدًا.

أنـا ولـدت فـي هـذا الشـارع فـي شـهر مـارس مـن العـام ١٩٨٠، شـارع غـلاب حسـين، أو شـارع الصعايـدة كمـا عُـرف بعدهـا بسـبب أن عـددًا كبيـرًا مـن سـكانه جـاؤوا فـي الأصـل مـن محافظـات الصعيـد المختلفـة.

كانـت أمـي تحبنـي جـدًا، هـذا مـا كانـت تخبرنـي بـه دائمًـا، كانـت تـرى أننـي طفـل خجـول ومـؤدب، وأشـبه الفتـاة الجميلـة الخجولـة كمـا كانـت تقـول لـي.

بمقاييـس الجمـال وقتهـا، يمكـن أن أقـول: إن أمـي كانـت جميلـة بشـكل غيـر مبالـغ فيـه، سـمينة بعـض الشـيء، جذابـة، تهتـم بمظهرهـا، لكـن بمقاييسـي أنـا حينهـا وحتـى اليـوم لـم تكـن أمـي مجـرد سـيدة جميلـة، بـل كانـت أجمـل وجـه أراه فـي حياتـي، وجـه مشـرق ملـيء بالبهجـة والخيـر.

أول ما يأتي في بالي دائمًا عن أمي حين كنت طفلًا، هو أنني كنت أسهر معها أمام «وابور الجاز» أثناء غليها للبن في المساء، بينما كانت تنتظرعودة أبي من عمله في وقت متأخر من الليل.

كنت أسهر مع أمي كل ليلة في هذه الفترة، ولم أكن أعرف لماذا كانت تستحم كل ليلة قبل وصول والدي، وتمشِّط شعرها باهتمام كبير، وترتدي ملابس مزركشة جميلة مليئة بالورود، لكن بعد أن كبرت فهمت أن أمي كانت تحب هذا الرجل فعلًا، وكان اهتمامها بشكلها كل ليلة قبل وصوله أكبر دليل على هذا الحب الذي كان نتيجته عشرة أبناء؛ أربع من الإناث، وستة من الذكور.

أحبت أمي النظافة، وأتذكر أن بيتنا كان من أنظف المنازل في شارعنا، فقد كانت تنظفه أمي من الداخل والخارج بشكل يومي، عن طريق مقشة صغيرة مصنوعة من سعف النخيل، ما زلت أتذكر شكلها حتى اليوم.

أمي كانت تحب الجمال، وكانت تتغزل في مذيعات الربط اللاتي يظهرن على شاشة التليفزيون المصري وتراهن نموذجًا للجمال والاهتمام بأنفسهن،

وكانت تتفاعل معهن بشكل حقيقي، فحين تظهر إحداهن قائلة: «مساء الخير أعزائي المشاهدين» كانت أمي ترد عليها التحية بلغتها البسيطة قائلة لها: «مساء الخير عليكِ يا حبيبتي»، وأثناء مشاهدتها للأفلام كانت تتعامل معها بتفاعل كبير باعتبارها قصصًا حقيقيةً لدرجة أنها يمكن أن تبكي إذا ماتت البطلة، ويمكن أن تغني وتتمايل إذا كانت البطلة تغني أغنية جميلة أو ترقص مثلًا.

لكن من ناحية أخرى كانت أمي تكره الأفلام التي لا تحمل رسالة هادفة مباشرة، وكانت تعتبر أن مشاهد الحب بين ممثل وممثلة ليسوا أزواجًا في العمل الفني «حاجة بتعلم البنات قلة الأدب»، وفق فهمها البسيط للحياة والفن.

أحبت أمي الأغاني، عشقت أم كلثوم وعبد الحليم حافظ وصباح، وحفظت أغاني وردة وميادة الحناوي وعزيزة جلال وعايدة الشاعر وياسمين الخيام، وكانت تعشق الأصوات القادمة من الصعيد والدلتا، أحبت خضرة محمد خضر، ومتقال وياسين التهامي وغيرهم.

وحتى اليوم ما زالت صورة كبيرة ملونة لأم

كلثوم بإطار من الخشب المذهب تحتل جزءًا كبيرًا من حائط غرفة نوم أمي.

أمي أيضًا كانت تحب شراء الأجهزة الكهربائية المنزلية، اشترت خلاطًا للمطبخ قبل أن يعرفه الناس في منطقتنا، واشترت مكواة، وثلاجة، وغيرها من الأجهزة التي كانت نادرة في منازل المناطق الشعبية وقتها.

لكن لم تكن أمي أبدًا شخصية رقيقة حالمة، بل كانت إنسانة حازمة وصارمة في أوقات كثيرة، لا تقبل أن يهينها أيُّ شخص، وأتذكر أنها كانت تحكي لي كثيرًا عن دورها حين كان يحصل خلاف بين والدي وبين أيِّ شخص آخر، تراقب التطورات عن كثب، ولو تحوَّل الخلاف إلى معركة، كانت تحمل عصاة غليظة وتساعد والدي في التغلب على خصمه بكل قوة، كانت ترفض أن يظلمنا أيُّ شخص أو يتفوق علينا (يكسر أعيننا كما كانت تقول) من دون وجه حق، وكانت تردد دائمًا في كبرها أنها حمتنا وحمت والدي من أيِّ شخص متجبر أو ظالم أراد أن ينتصر علينا، علمتنا أمي أن كرامتنا هي الأهم على الإطلاق، وألا نسمح لأيِّ شخص أن يظلمنا.

أمـي كانـت كريمـة بدرجـة كبيـرة، علـى عكـس والـدي الـذي كان يحافـظ علـى كل قـرش؛ لذلـك كانـت العديـد مـن السـيدات تعشـق أمـي بجنـون؛ فهـي كانـت تسـاعدهن بشـكل كبيـر، وأتذكـر أن سـيدة بسـيطة كانـت تسـكن فـي غرفـة بسـيطة فـي واحـد مـن بيوتنـا القديمـة، وكانـت تدفـع إيجـارًا شـهريًّا قليـلًا جـدًّا، وحيـن كانـت تأتـي لأمـي لتدفـع هـذا الإيجـار، كانـت أمـي تعطيهـا هدايـا وأشـياءً مفيـدة مثـل البيـض والأرز والسـكر والمعكرونـة، كانـت تعطيهـا أشـياء تزيـد قيمتهـا عـن مبلـغ الإيجـار الـذي كانـت تدفعـه هـذه السـيدة، علمتنـا أمـي الكـرم.

عشـقت أمـي طـوال حياتهـا تربيـة الطيـور وحيوانـات المنـزل، ومنـذ أن أدركـت أنـا الحيـاة وأنـا أرى سـطح بيتنـا أقـرب لمزرعـة مصغـرة بهـا دجـاج وحمـام، وبـط وأوز وأرانـب، وأحيانًـا بعـض الأغنـام، وهـذا هـو السـبب فـي أننـا لـم نشـترِ أبـدًا فـي حياتنـا بيضًـا أو دجاجًـا مـن الأسـواق، كان سـطح منزلنـا دائمًـا هـو مصـدر هـذه الخيـرات.

تؤمـن أمـي أن الطيـور والحيوانـات المنزليـة الأخـرى هـي خيـر فـي البيـت، وكانـت تـرى أن البيـت الـذي

لا يربـــي أصحابــه طيــورًا تغيــب عنــه البركــة؛ لذلــك كان ســطح بيتنــا بالنســبة لأمــي هــو جنتهــا وعالمهــا الحقيقــي، كانــت فلســفتها قمــة فــي البســاطة، نحــن أســرة كبيــرة العــدد، يتبقــى مننــا بواقــي ضخمــة مــن الطعــام يوميًــا، فلمــاذا نرميهــا فــي ســلة القمامــة إذا كان يمكــن أن نطعمهــا لطيــور نربيهــا فــوق ســطح بيتنــا؟

الغريـب أنـه بعـد وفـاة أمـي حزنـت عليهـا كل الطيـور التـي كانـت موجـودة فـوق سـطح بيتنـا وتراعيهـا زوجـة أخـي بعـد مـرض أمـي؛ إذ ماتـت كلهـا بسـرعة شـديدة، وبـات سـطح بيتنـا خاليًـا مـن الطيـور مثلمـا أصبحـت حياتنـا جميعًـا خاليـة مـن الخيـر والبركـة.

كانــت أمــي تحــب أن تخبــز لنــا بنفســها أرغفــة «العيـش الشمسـي»، وهـو نـوع مـن الخبـر مشـهور فـي صعيـد مصـر يعتمـد علـى تركـه لسـاعات تحـت أشـعة الشـمس الحارقـة حتـى يختمـر، كان لدينـا فـرن مبنـيّ مـن الطـوب والطيـن فـوق سـطح منزلنـا، وكانـت أمـي تخبـز لنـا فيهـا أجمـل خبـز شمسـي يمكـن أن تأكلـه فـي حياتـك، وكنـا فعـلًا نسـتمتع بأكلـه، وكان مـن النـادر أن نشـتري الخبـز مـن المخابـز العاديـة، لكـن تغيَّـر الأمـر بعـد أن امتلـك والـدي مخبـزًا بلديّـا كان يحلـم بـه منـذ

أن كان عامـلًا بسـيطًا فـي مخابـز محافظـة الجيـزة.

وأنـا كنـت دائمًـا أسـاعد أمـي فـي إعـداد العيـش الشمسـي، وأتذكـر أنهـا كانـت تعطينـي جـوالًا فارغًـا، وتطلـب منـي أن أبحـث فـي الشـوارع القريبـة منّـا علـى قطـع أخشـاب يمكـن أن نسـتخدمها فـي إشـعال الفـرن الطينـي الـذي كنـا نمتلكـه، كان هـذا حيـن كنـت طفـلًا صغيـرًا فـي فتـرة كانـت الحيـاة فيهـا أمـان، ولا خـوف علـى الأطفـال مـن وجودهـم فـي الشـوارع، أقـول هـذا حتـى لا يظـن البعـض أنهـا كانـت سـيدة مهملـة تتـرك ابنهـا فـي الشـارع، حقًـا الحيـاة كانـت جميلـة وقتهـا، ولا أتذكـر أننـي تعرضـت لموقـف واحـد سـلبي فـي الشـارع، حتـى خطـر السـيارات لـم يكـن موجـودًا؛ إذ كان عـدد السـيارات قليـل جـدًا فـي منطقتنـا.

لكـن للأسـف رحلـت أمـي وتغيـرت الحيـاة، باتـت أكثـر قسـوة، وغـاب الأمـان عـن الشـوارع.







ومهما أخذتها المدن..
يظل الصعيد في قلبها.

تقول اللغة: إن الصعيد هو المرتفع عن الأرض، وكان جنوب مصر يسمى مصر العليا لسنوات طويلة، قبل أن يصبح الاسم هو صعيد مصر مع قدوم العرب، وأمي كانت تشبه الصعيد بدرجة كبيرة، طموحها يصل إلى حدِّ السماء، وتقبلها للحياة كذلك.

يعرف أغلب من عاش في صعيد مصر أن باب المنازل هناك لا يغلق غالبًا سوى في فترة النوم؛ فالناس هناك تشعر بالأمان، وتريد أن ترسل رسائل ترحيب لجميع جيرانهم وأحبابهم، هذا بالنسبة لي معنى مرتفعًا بدرجة كبيرة عن غلق الأبواب بأكثر من قفل أحيانًا في بيوت العاصمة، بسبب خوف الناس من الغرباء والسرقة.

نقلت أمي معها إلى العاصمة معانٍ عالية علو الصعيد، ومنذ أن وعيت أنا على الدنيا، وباب

شـقتنا فـي بـولاق الدكـرور لـم يغلـق أبـدًا، سـوى فـي أوقـات نـوم أمـي فقـط، رغـم أننا كنـا نعيـش فـي بيـت بـه بعـض الشـقق المؤجـرة لسـكان غربـاء معنـا.

مثـل أغلـب أسـر الصعيـد، كانـت أمـي، السـيدة البسـيطة العظيمـة، تـرى أن بـاب شـقتها المفتـوح يجعلهـا قـادرة علـى حمايـة البيـت مـن أيِّ شـخص غريـب يمكـن أن يدخـل المنـزل، ويصعـد درج بيتنـا مـن دون أن تعـرف هـي لمـن سـيذهب، أو مـاذا يريـد.

فـي طفولتـي كان هـذا الأمـر يضايقنـي، كنـت أبحـث عـن الخصوصيـة قبـل أن أعـرف معناهـا، كنـت أتحـدث مـع أمـي عـن ضـرورة أن نغلـق بابنـا علينـا مثـل باقـي أصدقائـي وقتهـا، فكانـت تـرد دائمًـا: بـأن بـاب بيتنـا يجـب أن يظـل مفتوحًـا ومرحبًـا بالجميـع، وتقـول لـي: إنـه حيـن أتـزوج يمكننـي أن أغلـق بـاب شـقتي علـي.

حيـن كبـرت فهمـت وجهـة نظـر أمـي، هـذه السـيدة كانـت تريـد أن تخبرنـا جميعًـا ـ نحـن أبنائهـا وبناتهـا ـ أن بابهـا سـيظل مفتوحًـا لنـا جميعًـا، وأن هـذه الشـقة مختلفـة تمامًـا عـن أيِّ شـقق أخـرى سـنعيش فيهـا حيـن نكبـر، شـقة تسـع الجميـع، وترحـب بهـم فـي أيِّ وقـت وفـي كل وقـت.

حتى اليوم، ورغم وفاة أمي، ما زال باب شقتنا مفتوحًا، لا نغلقه سوى في فترات النوم، أحببنا هذه العادة وحافظنا عليها من بعدها، وبات الباب المفتوح الذي يرحب بالجميع صفة من صفات شقتنا، التي ما زالت كما هي مثلما كانت تعيش فيها أمي، وشقيقاتي يقمن بكل ما كانت تقوم به أمي في حياتها.

يشبه باب شقتنا قلب أمي، مفتوحًا طوال الوقت، لا تحتاج للاستئذان كي تمرَّ منه، مضيافًا ولا يرفض الناس بكل عيوبهم وأخطائهم، وحين يغلق في المساء يمكنك بكل بساطة أن تدق عليه بيدك دقة بسيطة، وستجده فتح أمامك بسرعة شديدة.

حين عادت أمي من أول رحلة حج تقوم بها في حياتها في العام ١٩٩٦، أحضرت معها من السعودية، شريطَ كاسيت يحوي أغنية حج مصرية جميلة تقول:

رايحة فين يا حاجة يا أم شال قطيفة.. رايحة أزور النبي محمد والكعبة الشريفة.

رايحة فين يا حاجة يا أم شال لموني.. رايحة

أزور النبـى محمـد وأملِّـي عيونـي.

رايحـة فيـن يـا حاجـة يـا أم شـال سـماوي.. رايحـة أزور النبـي محمـد وأرجـع علـى القنـاوي.

كانـت كلمـا تنتهـي الأغنيـة، تطلـب منَّـا أمـي أن نعيدهـا مجـددًا، وكنـا نقـوم بذلـك عبـر زر الإعـادة فـي جهـاز الكاسـيت ماركـة «باناسـونيك» الـذي مـا زلنـا نحتفـظ بـه حتـى اليـوم، ونعتبـره أحـد الأشـياء التـي نحـسُّ فيهـا برائحـة أمـي.

أحببنـا هـذه الأغنيـة بجنـون، بسـبب أنهـا ذكـرت جملـة «شـال قطيفـة»، وهـو النـوع المفضـل الـذي كانـت أمـي تهتـم بشـرائه دائمًـا، لكنهـا كانـت تهديـه لغيرهـا حيـن تشـعر بالملـل منـه، وتشـتري واحـدًا آخـر جديـدًا.

بعـد أن كبـرت، عرفـت أن للأغنيـة كلمـات أخـرى، وهـي: «رايحـة فيـن يـا حاجـة.. بتوبـك (بثوبـك) القطيفـة... رايحـة أزور النبـي محمـد والكعبـة الشـريفة»، لكـن الحقيقـة أن النسـخة التـي تحـوي كلماتهـا «شـال قطيفـة» هـي الأشـهر، وشـخصيًا أحببتهـا أكثـر؛ فهـي كانـت أغنيـة أمـي المفضلـة، والأغنيـة التـي تعبرعنهـا أكثـر.

في هذه الفترة مرَّ من باب بيتنا عشرات الأقارب والأحباب لتهنئة أمي بالحج، بدا لي وقتها أن الباب نفسه سعيد بعودة أمي من الأراضي المقدسة، وبزيارة أحبابها لها، وحتى بهذه الأغنية التي كانت تتردد باستمرار في شقتنا في هذه الفترة.

طوال السنوات التي عشتها في بيت عائلتي، كنت لا أذهب للعمل سوى بعد أن أمرَّ على شقة أمي، أدق على الباب في الصباح فتفتح لي أمي، أقبِّل يديها، وأقول لها جملة كل يوم: «عاوزة حاجة يا ست الكل؟» فتدعو لي من قلبها، ويصبح يومي جميلًا، كله خير وفرحة وسعادة.

كان والدي يظهرعليه بعض الضيق أحيانًا من اهتمامي الكبير بأمي، ويقول لي: «وأنا مش هتسألني إذا كنت عاوز حاجة؟» فأضحك له مخبرًا إيَّاه إنه الخير والبركة، لكني أبدًا لم أستطع سوى أن أطرح سؤالي على ست الكل.

تعودنا ـ أنا وكل أخوتي- أن نتجمع في شقة أمي بعد ظهر كل يوم جمعة، الغداء في شقتها أمر مقدس مهما كانت الظروف، وأمام الباب

المفتــوح، وحــول الطبليــة الخشــبية المبهجــة نلتــفّ؛ لنــأكل مــن أطبــاق أمــي الشــهية، وأثنــاء فتــرة مرضهــا كانــت تجلــس علــى مقعــد بالقــرب منّــا، تــأكل طعامهــا الصحــي المســلوق وكأنهــا تشــاركنا الطعــام، ولــم تكــن تظهــر تعبهــا أمامنــا أبــدًا فــي هــذه الفتــرة.

تعــوَّد والــدي فــي هــذا اليــوم أن يحكــي لأخوتــي مــا أقــوم بــه: «مصطفــى كل يــوم الصبــح يقــول لأمــه: مــش عــاوزة حاجــة يــا ســت الــكل، وأنــا بكــون واقــف أمامــه وكأنــي مــش موجــود»، نضحــك جميعًــا ونخبــره أننــا نحبــه مثلمــا نحــب أمنــا، فيظهــر عليــه عــدم الاقتنــاع، لكنــه لــم يغضــب منــا أبــدًا، كان متفهِّمًــا حبنــا لأمنــا ويحترمــه.

ســيظل بــاب شــقة أمــي مفتوحًــا، يرحــب بالجميــع بــدون قيــود أو شــروط ، بــاب تشــعر بضخامتــه رغــم أنــه فــي نفــس مســاحة باقــي الأبــواب العاديــة، بــاب يســع العالــم، بــاب ستســمعه حيــن تمــر عبــره يرحــب بــك، وإذا غبــت عنــه ســيعاتبك، وحيــن تخــرج منــه ستمســعه يقــول لــك لا تغــب عنــي.

كثيــرًا مــا أجــد نفســي أتســاءل: هــل بكــى بــاب شــقتنا علــى أمــي حيــن توفــت؟ أظــن أن هــذا حــدث

حيـن خـرج عبـره جسـدها متوجهًـا إلـى قبرهـا، أو بمـاذا تفسـر أننـا وجدنـا صعوبـة فـي غلـق البـاب حيـن أردنـا جميعًـا أن نذهـب لدفـن أمـي وكأنـه يريـد أن يأتـي معنـا، أو أنـه تعـوَّد أن يأخـذ أوامـره فقـط مـن صاحبتـه الوحيـدة.

من قال إن الجماد لا يشـعر بأحبابه؟!




٣٤

مدرسة أمي...



درست الصحافة، وحصلت على دبلوم دراسات عليا في الإعلام، وماجستير في الصحافة الإلكترونية، وزمالة من المركز الدولي للصحفيين بواشنطن، ودرست إدارة الأعمال، وسافرت دولًا عديدة لأتعلم وأنمِّي مهاراتي، لكن الحقيقة أن ما تعلمته في مدرسة أمي هو أعظم وأرقى الدروس التي حصلت عليها من هذه الدنيا الواسعة.

في العشرينيات من عمري كنت مزهوًا بقدرتي على التحدث بالإنجليزية، وكثيرًا ما كنت أستخدم مصطلحاتها أمام أمي وكأني ابن «بارم ذيله».

لكن الحقيقة أنني كنت ساذجًا بدرجة كبيرة، تصورت أنني أتفوق على أمي لمجرد إتقاني للغة أخرى، فيما كانت هي تجيد عشرات اللغات الإبداعية بكل مهارة، كانت تتحدث أمي لغة

الطيور والحيوانات المنزلية التي تربيها فوق سطوح بيتنا بكل إتقان، كما كانت تجيد لغتنا قبل حتى أن نتعلم نطق الكلمات، تفهم ما الذي يؤلمنا، وما الذي نحتاجه وقت حاجتنا الحقيقة له.

أظن أن أمي كانت تجيد أيضًا لغة الجمادات؛ فهي كانت تتحدث مع أشيائها الخاصة مثل ملابسها ودولابها، وسجادة الصلاة وباب الشقة والآرائك وغيرها، كانت تؤمن أن الجماد يشعر بكل شيء ويعبد الله.

حتى لغة الطقس من حولنا أجادتها أمي من دون متابعة فقرات الطقس في نشرات الأخبار، كانت تسألني عن اليوم والتاريخ فتعرف أن الأمطار ستهطل، أو أن الشمس ستكون ساخنة بجنون، وتطلب منا أن نستعد للطقس في الخارج قبل خروجنا من البيت.

كانت أمي تقرأ لغة العيون والجسد جيدًا، تعرف من منّا يكذب، ومن يقول الصدق، مهما أقسمنا لها كانت تعرف الحقيقة، والحق أنها لم تظلمنا أبدًا بسبب إجادتها للغة العيون والجسد.

تعلمت من أمي أشياءً كثيرة، أو كي أكون دقيقًا كل شيء إيجابي في شخصيتي تعلمته بالفعل من هذه السيدة، وأول هذه الأشياء هو الكرم، أتذكر قبل سنوات طويلة ذهبت مع أمي إلى القصر العيني، كان ذلك تقريبًا في العام ١٩٩٩، كانت قد بدأت تعاني بعض الألم في قدميها، عند عودتنا من القصر العيني ركبنا سيارة أجرة إلى المنزل، اتفق معنا السائق أن يأخد مبلغًا معينًا، لكن أثناء الرحلة أخذ يحكي لأمي عن حياته الشخصية، وعن مشاكل يمرُّ بها مع زوجته، تعاطفت أمي معه بدرجة كيرة وصدقته، وبعد أن وصلنا أعطته أكثرمما طلب، في البداية رفض السائق ذلك، لكنها أصرت.

بعد أن نزلنا قالت لي أمي جملة لن أنساها، وأصبحت أنا نفسي أرددها كثيرًا من بعدها: «الناس في مصر غلابة»، أخبرتني أن المبلغ الذي أعطته للسائق لن يفرق معها هي في حياتها، لكنه يمكن أن يفرق كثيرًا مع السائق نفسه، وأوصتني أن أعامل الناس جميعًا بإحساسي، فمن أشعر أنه فعلًا في حاجة للمال أقف معه، ومن أشعر أنه كاذب أو أفَّاق لا أتعاطف معه.

درس الكـرم الـذي تعلمتـه مـن أمـي هـو محركـي فـي هـذه الحيـاة، أعامـل النـاس بحـب واحتـرام، أعطيهـم مـا يحتاجونـه إذا كنـت قـادرًا علـى ذلـك، لا أنتظـر منهـم مقابـلًا، أفعـل ذلـك لوجـه الله وليـس لأيٍّ هـدفٍ آخـر.

أتذكـر أن قريبـة لنـا طلبـت مسـاعدة ماديـة مـن أمـي فـي يـوم، فقالـت لهـا أمـي: إنهـا غيـر قـادرة علـى مسـاعدتها، رحلـت السـيدة وهـي غاضبـة مـن أمـي، حيـن سـألت أمـي لمـاذا لـم تسـاعدها أخبرتنـي أن هـذه السـيدة ليسـت فـي حاجـة لمسـاعدة، وأن إحساسـها أخبرهـا بذلـك، أمـي كانـت تسـير بإحساسـها فـي كل شـيء، وأعتقـد أننـي ورثـت عنهـا هـذا الأمـر، مـا أكـد لـي ذلـك، هـو أن شـخصًا طلـب منـي مسـاعدة فـي يـوم، وإحساسـي أخبرنـي أنـه يكـذب، لكنـي رغـم ذلـك رفضـت إحساسـي وقـررت أن أسـاعده، وأخبرنـي أنـه سـيرد لـي المبلـغ المالـي بعـد شـهر واحـد، لكـن بعـد شـهر تواصلـت مـع هـذا الشـخص، فوجدتـه يتهـرب بشـكل واضـح، بعدهـا لـم يعـد يـرد علـى اتصالاتـي، وعرفـت بعدهـا أنـه أخـذ مبالـغَ ماليـة مـن زمـلاء كُثُـر ورفـض ردهـا لهـم، لـم يفكـر حتـى فـي

أن يعتذر لي، لم أغضب منه، بل شكرت الله على نعمة إحساسي بالأمر قبل أن يحدث، وشعرت أنها إشارة من الله أن أصدق إحساسي دائمًا، ولا أتكبر عليه مثلما أوصتني أمي.

الكرم ليس هو الشيء الوحيد الذي تعلمته من أمي، فقد تعلمت منها فضيلة مهمة أخرى وهي «جبر خواطر» الناس بكلمة جميلة تجعلهم سعداء حتى لو لم تكن هذه الكلمة حقيقية، حين كانت أمي تذهب لزيارة مريضة كانت تنظر لها بحب، وتقول لها: «ما شاء الله أنت اليوم أفضل ووجهك منور»، كنت أتعجب وقتها؛ فالمرض يظهر بشكل كبير على وجه السيدة، لكن سبحان الله كان لمجاملة أمي مفعول السحر، السيدة تبتسم وتتغير ملامحها في لحظة، وتصبح أفضل فعلًا.

كنت حين أشتري قميصًا جديدًا، وأسأل أمي عن رأيها كانت تقول لي: إنه جميل و»أول مرة تشتري قميص حلو كدة»، كانت جملتها تجعلني أعشق هذا القميص، كانت وجهة نظر أمي أن الناس أذواق، وأن القميص لو كان بالنسبة لها ليس جميلًا، فبالتأكيد هناك غيرها من سيراه جميلًا. ما هذه الفلسفة

العبقريـة؟! كيـف كنـت بهـذا الجمـال يـا أمـي؟!

فـي أحـد الأيـام، ذهبـت مـع ابنـي عيسـى إلـى واحـدة مـن العيـادات ورحبـت بـي الممرضـة، التـي كان يبـدو علـى وجهها بعـض الحـزن، وحيـن ناديـت عليهـا قلـت لهـا: «يـا آنسـة»، رغـم أنـه يبـدو عليهـا أنهـا أكبـر مـن أن تكـون آنسـة، توقفـت الممرضـة فجـأة، وقالـت لـي باسـتغراب: آنسـة؟! أنـا عنـدي أولاد فـي مثـل عمـرك، قلـت لهـا بابتسـامة: «مـا شـاء الله لا يظهـر عليـك ذلـك، تصـورت أنـك مـا زلـت آنسـة»، طـوال وجـودي فـي العيـادة شـعرت أن هنـاك جمـالًا مـا ظهـر علـى وجـه السـيدة، حتـى الحـزن الـذي كان فـي عينيهـا اختفـى.

أنـا مثـل أمـي، لا أرى فـي النـاس مـن حولـي سـوى الجمـال، أنـا لا أكـذب عليهـم، لكنـي «أجبـر بخواطرهـم»، وأرى أن الحيـاة لا تسـتحق أن نجـرح بعضنـا البعـض بكلمـات قاسـية، وأن الكلمـة الجميلـة صدقـة حقيقيـة يحتاجهـا البشـر وسـط كل المشـاكل التـي تقابلنـا فـي الحيـاة القاسـية. شـكرًا يـا أمـي أنـك كنـت بهـذا الجمـال والطيبـة، واللسـان الجميـل الـذي لا يخـرج منـه سـوى الكلمـات التـي تشـبه السـكر.

تعلمت من أمي أيضًا أن أدافع عن نفسي، وألا أخاف من أيٍّ شخص ظالم، وأن الثقة في النفس تجعل الشخص الذي يواجهك يعمل لك ألف حساب كما كانت تقول دائمًا، أعامل الناس بحب واحترام، لكني لا أسمح لهم بظلمي أو إهانتي، أو أن أعطيهم الفرصة أن يشعروا أنهم أقوى مني.

في أحد الأيام، كنت مع أخي الكبير»علي»، كنا في المقعد الخلفي في سيارة أجرة «ميكروباص»، كان السائق أقرب للبلطجي مع الجميع بدون سبب، حين أخبرته أن يتوقف؛ لأننا نريد النزول قال بكل تكبر وغرور: «أنا مش كل شوية هقف»، ورفض أن يتوقف لينزلنا في المكان الذي يفترض أن ننزل عنده، وجدت نفسي أتحدث معه بقسوة شديدة وبصوت عالٍ، والغريب أن الرجل الذي كان يظن نفسه بلطجيًا تراجع وصمت، ظهر على ملامحه الخوف من شخص كان يبدو هادئًا!

تعلمت من أمي حكمة مهمة أخرى، وهي أن أرفض الفوضى في منزلي، كانت ست الكل تكره الأثاث الخشبي غير الضروري، وكانت تقول لي دائمًا بلغتها البسيطة الجميلة: «بلاش تملأ بيتك

خشوبة»، وخشوبة هي جمع خشب وفق لغتها البسيطة، كانت ترى أن سريرًا وأريكة ودولابًا ومنضدة من الخشب تكفي أيَّ منزل، كانت تكره «النيش»، وترابيزة السفرة بمقاعدها العديدة، والأرفف الخشبية الكثيرة، كانت تعتبر كل ذلك غير ضروري، وتراه يحوِّل البيت إلى جحيم.

الغريب أنني حين كبرت وبدأت أقرأ كتبًا عن فن البساطة، وجدت أن فلسفة أمي السيدة البسيطة هي نفسها فلسفة أهم رجال علم الزِّنْ الياباني، وأن البساطة في تصميم المنزل أفضل طريقة لعيش حياة جميلة بلا عقد أو أزمات، وأنه كلما كان البيت هادئًا كلما أصبحت الحياة أبسط وأكثر سلامًا.

عندما قرأت كتاب سحر الترتيب لأول مرة في حياتي في العام ٢٠١٩، وهو كتاب يتحدث عن الفن الياباني في التنظيم وإزالة الفوضى، للكاتبة اليابانية ماري كوندو، وجدت في صفحات الكتاب كل ما كانت تقوله لي أمي، غريب أن أمي السيدة البسيطة تفوقت حتى على أهم المتخصصين في فن إزالة الفوضى من المنازل والحياة. أنتِ أستاذتهم جميعًا يا أمي.

حتـى عندمـا اشـتريت شـقتي فـي مدينـة السـادس مـن أكتوبـر فـي العـام ٢٠١٥ تقريبًـا، أسسـتها بنفـس فلسـفة أمـي، شـقة بسـيطة بهـا مـا أحتاجـه فقـط، لـن تجـدوا فـي شـقتي أشـياءً لا تسـتخدم، ليـس عنـدي سـفرة بعـدد مقاعـد كبيـر، بـل طبليـة بسـيطة مـن الخشـب، ليـس فـي شـقتي سـوى أريكـة واحـدة مريحـة، وتلفـازٍ صغيـر، وسـريرٍ مريـح أنسـى الحيـاة حيـن أنـام عليـه، ببسـاطةٍ شـقتي تـم تجهيزهـا بنفـس فلسـفة أمـي؛ لذلـك أشـعر براحـة كبيـرة فـي هـذه الشـقة.

أمـي العزيـزة: شـكرًا لأنـك جعلتينـي أكـره الفوضـى، شـكرًا لأنـك جعلتينـي أمتلـك مـا يفيدنـي فقـط مـن «الخشـوبة».

جعلتنـي أمـي أحـب الطيـور، كانـت رحمهـا الله تربـي أنواعًـا عديـدة مـن الطيورالمنتجـة والمفيـدة فـوق سـطح منزلنـا القديـم، واليـوم فـي بلكونـة شـقتي زوج مـن طيورالزينـة الملونـة، صوتهمـا فـي الصبـاح يمـلأ حياتـي بهجـة وفرحـة، ويعطينـي طاقـة كبيـرة علـى العمـل والنجـاح، وأشـعر أنـه فـي أحـد الأيـام سـيكون عنـدي سـطح أربـي فيـه طيـورًا منتجـة مثـل الدجـاج والبـط والأوز والحمـام وغيرهـم، أسـتفيد منهـم ومـن

خبراتهم في حياتي.

زرعت أمي في قلبي حب أخوتي، وأن أعتبرهم مصدر قُوْتِي الحقيقي لي في هذه الحياة، نجحت أمي في أن تجعلنا نحبها بجنون، ونحب بعضنا بجنون مشابه أيضًا، استطاعت بذكاء شديد أن تجعلنا «سندًا» لبعضنا بعضًا، نلتقي باستمرار، ولا نسمح للحياة بأن تبعدنا بأمواجها العاتية عن أن نتقابل، وننسى أن نتواصل ونطمئن على بعضنا البعض. وبالمناسبة أعترف أنني رفضت عروضَ سفرعديدة للعمل خارج مصر لمجرد أنني لا أستطيع الابتعاد عن أخوتي، فبهم أنا قوي، ومعهم أنا سعيد.

وصتني أمي قبل وفاتها بفترة قصيرة بشقيقتي الأصغر نجلاء، وكأنها كانت تعلم أنها لن تستمر مع زوجها كثيرًا، طلبت مني أن أظل بجانبها دائمًا، وألا أتركها، أوصتني أمي كذلك بأن أهتم بشقيقي »رمضان« الذي يعاني من مرض الصرع، وقالت لي: ألا أتركه ما حييت، وأن أدعمه وأهتم بعلاجه طوال عمري.

في العام «2020» ذهبت شقيقتي الكبرى عصمت، التي نعرفها في العائلة باسم آمال، لعمل

عمليــة فــي قدمهــا اليمنــى، وأنــا كنــت معهــا لحظــة بلحظــة، لــم أتركهــا أبــدًا، بعــد أن خرجــت شــقيقتي مــن غرفــة العمليــات، ووصلــت غرفتهــا فــي مستشــفى الشــيخ زايــد التخصصــي بمدينــة الســادس مــن أكتوبــر، كنــت فــي انتظارهــا مبتســمًا، وبينمــا كنــت أنظــر لوجههــا، رأيــت وجــه أمــي علــى ملامحهــا فــزادت ابتســامتي، وجــدت نفســي أحضــن آمــال بــكل حــب، لكننــي نســيت أن أخبرهــا أن أمنــا كانــت معنــا فــي الغرفــة، وأنهــا تمثلــت لــي فــي وجــه شــقيقتي للحظــة.





أشياء بسيطة أحبتها أمي...

كانت أمي بسيطة بالمعنى العميق للكلمة، حياتها بسيطة، ملابسها بسيطة، أحلامها بسيطة، لكن لحظة.. ما هي البساطة؟ البساطة كما كانت تؤمن بها أمي هي أن نحيا حياة هادئة مليئة بالسلام الداخلي، دون مشاكل أو كراهية، البساطة من وجهة نظر أمي كانت أن تمتلك أشياء تحبها، وتشعر بسعادة حين تنظر لها، أو تستخدمها في حياتها اليومية.

أحبت أمي الملابس، كان دولابها مليئًا بملابس بسيطة، من قماش قطني جيد، ألوانه زاهية ومبهجة، كان هذا في شبابها، حين كانت ترتدي جلبابًا ريفيًّا مزركشًا يشبه الفستان، وعندي صورة لها وهي صغيرة، ترتدي فيها فستانًا فلاحيًّا أزرق اللون عليه ورود جميلة، لكنها حين كبرت وقبل وفاتها كانت تفضل العبايات السوداء البسيطة.

كانـت أمـي تحـب شـراء الذهـب الخالـي مـن البهرجة، كانــت ترتــدي قرطًــا يطلــق عليــه المخرطــة، وصَّــت أن يذهــب إلــى شــقيقتي آمــال بعــد وفاتهــا، ارتــدت كذلــك عقــدًا جميــلًا مــن الذهــب، وأســاور جميلــة وبســيطة جــدًا، كانــت أمــي تقــول: إن الذهــب هــو أجمــل شــيء يجــب أن تحافــظ الســيدة علــى امتلاكــه؛ لأنــه يمكــن أن ينقــذ الإنســان فــي حالــة تعرضــه لموقــف صعــب عــن طريــق بيعــه والاســتفادة مــن ثمنــه.

اهتمــت أمــي اهتمامًــا كبيــرًا بشــراء بطانيــات النــوم، وكانــت تحــرص علــى أن تختارهــا غاليــة وبجــودة عاليــة، حتــى لــو كانــت ســتفعل ذلــك عــن طريــق التقســيط؛ إذ كانــت تــرى أن اهتمــام الإنســان بنومــه ســيجعله ســعيدًا فــي هــذه الحيــاة، وأن بــرد الشــتاء قادرعلــى أن يحــرم الإنســان مــن نــوم صحــي ســليم، وحتــى اليــوم يمتلــئ بيتنــا ببطانيــات ذات جــودة عاليــة تدفئنــا فعــلًا، وتحمينــا مــن بــرد الشــتاء القــارص.

أهدتنــي أمــي وأهــدت كل أخوتــي بطانيــات جميلــة غاليــة، وهــي معنــا حتــى اليــوم، وشــخصيًا لا أســتمتع أثنــاء نومــي فــي الشــتاء بــأيٍّ بطانيــة غيــر تلــك التــي أهدتنــي إيَّاهــا أمــي.

هناك قصة حب بين أمي وبين الشاي، كانت تعتبره مشروبًا عظيمًا ومفيدًا، يعطي الإنسان النشاط والحيوية، وكانت تعده بمهارة فائقة؛ لدرجة أن كلَّ من كان يجرب كوبَ شاي من يد أمي كان يحلف به، وأتذكر أن صديقًا لي زارني حين كنت في الجامعة، وقامت أمي ـ رحمها الله ـ بعمل كوب شاي له، فوصف الكوب بجملة عبقرية لا أنساها أبدًا؛ إذ قال: «هذا كوب شاي أقرب للمزيكا».

عرفت أمي أهمية الخضروات الطازجة من دون أن تقرأ عن فوائدها في الكتب، فهمت بالفطرة أن الطعام الصحي والمفيد الذي سيساعدنا على أن نكبر بصحة جيدة يجب أن يكون البطل فيه الخضروات الطازجة، ورغم أن عدد أصناف الطعام الذي كانت تصنعه لنا قليل جدًا، إلا أنها كانت تصنعه بمهارة كبيرة، كانت تطهو لنا البامية والملوخية، والعدس والبازلاء، والكوسة والفاصوليا البيضاء والخضراء، واللوبيا والسبانخ.

كان طعم أكل أمي جميلًا لدرجة أني سألتها في طفولتي عن سر حلاوة أكلها، فقالت لي ساخرة: إنها تضع السكر في الطعام، ووقتها صدقتها!

حتى اليوم أطلب من زوجتي نفس الأطعمة التي كانت تصنعها لنا أمي، وأصرَّ على أن أطعمة أخرى مثل المعكرونة بالبشاميل والحواوشي وغيرهما، أطعمة غير صحية، وأنصح أبنائي بالطعام الطازج فقط مثلما كانت أمي تنصحنا دائمًا، لكن يبدو أن الحياة تغيَّرت كثيرًا؛ فالناس لم تعد تحب الأكل الطازج.

أحبَّت أمي الشارع، كانت تقضي ساعات طويلة من يومها تنظر من نافذة شقتنا على الشارع، تنظر للناس في سيرها، وقد ورثت عن أمي هذا الأمر، من الممكن أن تقضي ساعات طويلة تنظر من النافذة، لا أعلم هل كانت أمي تنظر للشارع فعلًا، أم إنها كانت تعتبر الأمر مجرد فترة تأمل؟ لو عاد بي الزمن كنت سأسألها هذا السؤال، أنا نفسي لا أعرف لماذا أحب مشاهدة الشارع؟ لكن الأكيد أن السر عندي أمي.

كانت أمي رحمها الله تحب النوم، وتراه مساحة للهروب من الحياة بأزماتها العديدة، وكانت تنصحني بأن أنام عددَ ساعات كافٍ حتى أستطيع العمل والنجاح في الحياة، الجميل أن ما كانت

تقولـه أمـي السـيدة البسـيطة غيـر المتعلمـة، هـو ملخـص كتـاب كامـل يحمـل عنـوان: «لمـاذا ننـام: اكتشـف طاقـة النـوم والأحـلام»، وهـو كتـاب علمـي حـول النـوم مـن تأليـف عالـم الأعصـاب والباحـث حـول النـوم، ماثيـو ووكـر، أسـتاذ علـم الأعصـاب وعلـم النفـس ومديـر مركـز علـوم النـوم البشـري بجامعـة كاليفورنيـا فـي بيركلـي، والكتـاب صـدر فـي العـام ٢٠١٧، الغريـب أن المؤلـف كتـب فـي صفحـة ١٥٧ مـن كتابـه فصـل بعنـوان: «لمـاذا ينبغـي أن ننـام»، وحيـن فتحـت هـذا الفصـل لأعـرف السـبب وجـدت عنوانـًا فرعيًّـا جميـلًا للكاتـب، وهـو: «أمـك تعـرف لمـاذا يجـب أن ننـام».

هـل كان المؤلـف ماثيـو ووكـر يحدثنـي أنـا دونـًا عـن كل البشـر فـي هـذا العالـم؟ الحقيقـة أن هـذا مـا شـعرت بـه أثنـاء قراءتـي للكتـاب.





وعلى رأي.. أمي.

أحبت أمي الأمثال والمقولات الشعبية بدرجة كبيرة، لكن أمثالها ومقولاتها كانت لها خصوصية رغم قلة عددها، والحقيقة أنني لا أعرف لماذا لم أسأل أمي طوال السنوات التي قضيتها بجانبها عن حكايتها مع كل مثل ومقولة كانت ترددها، كي أعرف من أين لها بها، ومن الذي علمها إيّاها.

على سبيل المثال، حين كانت أمي تستمع لقصص من أقاربها أو منا، كانت تقول وهي تنظر للسماء: «على رأي المثل، كم القلب يشيل»، في إشارة إلى أن الإنسان داخل قلبه مئات الحكايات المدهشة، سواء كانت حكايات حزينة أو مبهجة، فيما هي تتعجب من قدرة القلب على الاحتفاظ بكل هذا العدد الضخم من القصص والذكريات.

استخدمت أمي مثلًا آخر في أغلب حواراتها، وهو: «منين يا قرعة أبوسك، من شعرك ولا عقوصك»، وكانت تستخدمه حين تريد أن تقول لمن تتحدث معه إنه مليء بالمشاكل، وحياته تحتاج منه لوقفة جادة كي يصلحها، وفي اللغة العربية كلمة عقوص: تعني خصلات الشعر، ويقال: عقصت المرأة شعرها أيّ: جعلته خُصَلًا.

وحين بحثت عن أصل المثل لم أجده بنفس الصيغة التي كانت ترددها أمي؛ إذ وجدت أن أقرب صيغة له هي: «احترنا يا قرعة من وين نبوسك»، من دون التكملة التي كانت تحوِّل مَثَل أمي لقصة قصيرة ساخرة.

«قال يا قاعدة ومرتاحة، جبتي لروحك ردَّاحة»، مثل آخر كانت تردده أمي كثيرًا، وتعني به أن بعض الأشخاص لا يحمدون الله على راحة بالهم، ويبحثون عن المشاكل بأنفسهم، وأتذكر أن أمي قالت لي هذا المثل مرة حين علمت أنني اشتريت درَّاجة لابني عيسى، وكان وقتها لم يكمل اثني عشر شهرًا من عمره، وحينها كان يصمّم على ركوب الدرَّاجة

فيقع ويأذي نفسه وأجري به إلى المستشفيات.

فيما بعد توصلت إلى أن المثل مختلف قليلًا عمَّا تعودت أمي على ترديده؛ إذ أنه معروف بصيغة: «كانت قاعدة ومرتاحة، جابت لها حاحة»، أو «كَانِت مِرْتَاحَهْ جَابِتْ لَهَا حَاحَهْ»، والمراد بالحاحة: هو صوت الحيوان كالمَاعِزْ والدجاج والإِوَز؛ أي: كانت في راحة فجلبت لنفسها شيئًا يشغلها ويتعبها، وبعضهم يرويه للمتكلم؛ أي: «كُنت مرتاحة جبت لي حاحة».

وهناك تعبير كانت أمي تستخدمه كثيرًا حين تتحدث عن خبث شخص ما؛ إذ تطلق عليه: «عجوز خيبر»، كانت حين تريد أن تطلب منَّا الحذر من شخص ما فتصفه لنا بأنه «عجوز خيبر»، خصوصًا لو كان طفلًا به صفات سيئة.

وفي الحقيقة لا أعرف أصل هذا التعبير، وكل ما وجدته أثناء بحثي يتعلق بشكل ما بقصة عجوزة خيبر زينب بنت الحارث؛ المرأة اليهودية العربية التي حاولت اغتيال النبي محمد عن طريق وضع السم له في الطعام، لكنني غير واثق من أن أمي

كانت تقصد هذه القصة.

بحسب قناعة أمي فمن لم يستشر الأكبر منه سنًا في أموره المختلفة، فسيتعثر كثيرًا في حياته، وصاغت هذه الحكمة في مثل بسيط، لكنه عميق ومعبر؛ إذ كانت تقول: «اللي ما يسمع كلام كبيره، يا تعتيره»، كانت تقولها هكذا، لكني بعد بحث وجدت أن أصل المثل مختلف قليلًا من حيث الصياغة: «اللي ما يسمع لكَبيرَه يا تَعَاتِيرَه»، وهو تحذير لمَن لا ينصتون لنصائح الأكبر منهم مقامًا وعلمًا وسنًا إلى كثرة متاعبهم ومشقاتهم في الدنيا.

حين كانت أمي تسمع أن هناك ضيفًا ما سيزورنا وهي لا تحبه، كانت تقول بابتسامة جميلة: «مافيش حاجة بتيجي من الغرب تسرُّ القلب»، حتى لو كان هذا الشخص قادمًا من الجنوب، أي من الصعيد، وحاولت البحث عن أصل هذا المثل، لكني لم أصل لنتيجة مرضية، اللهم معلومة قد تكون مرتبطة بالمثل وهي أن جبَّانات مصر القديمة «الفرعونية» كانت تقع غرب النيل، وبالتالي كان الغرب هو مكان وجود الموتى في الثقافة المصرية!

أحببت أمثال أمي، وحاليًا أستخدمها في حواراتي اليومية، لكن فقط وسط أصدقائي المقربين فقط، ففيها حلاوة السنين وخبراتها.. ورائحة أمي.







الله في قلب أمي...

الحبُّ الأكبر في قلب أمي كان لله سبحانه وتعالى، والذي كانت علاقتها به جميلة ومميزة، تشبه جمال سور وآيات القرآن الكريم الذي لم تكن تجيد قراءته، لكنها كانت تعشق الاستماع لكلماته بصوت أهم الشيوخ المصريين من أمثال الشيخ عبد الفتاح الشعشاعي، صاحب الصوت القوي الفريد، والشيخ مصطفى إسماعيل ذي الصوت الذهبي، والشيخ طه الفشني، كروان الإنشاد الديني، والشيخ أبو العينين شعيشع، الجوهرة الفريدة، وشيخ شيخ عموم المقارئ المصرية، الحصري، والشيخ محمود علي البنا، سفير القرآن.

آمنت أمي بالله ملء قلبها، وصدقت أن قرَّاء القرآن المصريين هم سفراؤه الذين أعطاهم الله القدرة على الوصول بكلامه إلى القلوب المؤمنة

الصافيــة، ولا أذكــر أنهــا أحبــت قــارئ قــرآن غيــر مصــري، كانــت تصــدِّق الأصــوات المصريــة، وتعتبــر أيَّ صــوت غيــر مصــريّ هــو صــوت مصطنــع لــم ينبــت علــى أرض مصــر الطاهــرة كمــا كانــت تقــول.

الله بالنســبة لأمــي هــو كيــان مبهــر، قــادر علــى كل شــيء، ليــس لــه شــريك أو صديــق أو ولــد، يســمع الجميــع ويعاملهــم برحمتــه لا بعدلــه.

وبالنسـبة لأمـي كانـت الصـلاة حالـة عشـق خـاص، كرهــت التطــرف والمتطرفيــن، وأحبــت الوســطية والحيـاة، وكانـت الصـلاة بالنسـبة لهـا هـي سـر السـعادة المطلقــة، تعلمــت أمــي الصــلاة فــي الكبــر، بعــد أن سـاعدناها فـي حفـظ بعـض السـور البسـيطة مـن القـرآن الكريـم، فقـط مـا جعلهـا قـادرة علـى أداء الصـلاة بشـكل صحيــح، منــذ أن صلَّــت أول فــرض لهــا، وســقطت فــي عشــق هــذه الحالــة الجميلــة التــي كانــت تقربهــا مــن الله، وطــوال فتــرة طفولتــي وشــبابي لــم تفــوت أمــي فرضًــا واحــدًا مــن صلاتهــا، وحتــى حيــن أصابهــا المــرض ولــم تعــد قــادرة علــى الحركــة بســهولة كانــت تصلــي وهــي جالســة.

صــلاة أمــي كانــت جميلــة وبســيطة مثلهــا، تقربهــا

مـن الله، لكنهـا لا تفصلهـا عـن الحيـاة والمنـزل، فـإذا كانـت تصلـي مثـلًا وتريـد أن توصـل لنـا رسـالة، كانـت تقـول بصـوت عـالٍ: «الله أكبـر» كنـا نفهـم أن هنـاك خطـب مـا ونصلحـه علـى الفـور، فمثـلًا لـو أخبـرت شـخصًا فـي المنـزل أننـي متوجـه إلـى العمـل وهـي تريدنـي فـي شـيء كانـت تقـول بصـوت عـالٍ: «الله أكبـر»، فكنـت أفهـم أنهـا تريدنـي أن أنتظرهـا حتـى تنتهـي مـن الصـلاة لتخبرنـي بشـيء، ونفـس الأمـر كان يحـدث مـع كل أخوتـي.

«رابحـة» كانـت متدينـة تدينًـا مصريًّـا جميـلًا، تحـب الحيـاة والموسـيقى والأفـلام والمسلسـلات، ولا تـرى فـي مشـاهدتها أيَّ شـيء حـرام، بـل علـى العكـس كانـت تقـول: إن الفنـون تقـرِّب الإنسـان أكثـر إلـى الله وتعلمـه أشـياء مفيـدة.

أحبـت أمـي الله والصـلاة والصـوم، وفـي المقابـل كرهـت الجماعـات المتطرفـة التـي تبالـغ فـي إظهـار تدينهـا، أو تزايـد علـى غيرهـا مـن البشـر. مثـلًا ومـع احترامـي الكامـل للمنتقبـات، أمـي لـم تكـن تحـب النقـاب، وكانـت تـراه ليـس مـن الديـن فـي شـيء، ولـم تكـن تنخـدع فـي المنتقبـة، أو تعتبرهـا أقـرب إلـى الله

منهــا، ولــم تكــن تســمح لأيٍّ منتقبــة بــأن تزايــد علــى تدينهــا وإســلامها، نفــس الأمــر مــع الملتحيــن، كانــت تــرى بعضهــم يبالــغ فــي التديــن بدرجــة كبيــرة، وهــي كانــت تؤمــن أن ســاعة لقلبــك وســاعة لربــك.

أحبــت أمــي الصــلاة فــي المنــزل، وكانــت تــرى أنهــا تمــلأ أركان البيــت خيــر وبركــة، وكانــت علــى العكــس لا تحــب صــلاة النســاء فــي المســاجد، كان مبدؤهــا هــو: لمــاذا أصلــي كسيدة فــي المســجد وأتــرك بيتــي؟ وحتــى فــي رمضــان كانــت تصلــي التراويــح فــي المنــزل، وترفــض بشــكل تــام الذهــاب للمســاجد.

حتــى مــا يطلــق عليــه علامــة الصــلاة التــي تظهرعلــى جبهــة مــن يطيــل الســجود علــى ســجادات صــلاة خشــنة كانــت تعتبــره أمــرًا ســلبيًا ولــم تتمنــاه أبــدًا، بالنسبة لهــا كان وجــه مــن يصلــي لا يحتــاج لعلامــة، وبعــد وفاتهــا حيــن قــرأت بعــض التقاريــر عــن أن مــا يطلــق عليــه علامــة الصــلاة هــو مــرض جلــدي لا علاقــة لــه بالتديــن كنــت أبتســم، تعلمــت مــن أمــي أن الديــن يســر، وأن القــرب مــن الله لا يحتــاج منَّــا أن نكــون متطرفيــن أبــدًا، الحيــاة بسيطة مــن وجهــة نظــر أمــي، والديــن كذلــك.

لكــن الــدرس الأهــم الــذي تعلمتــه مــن أمــي هــو

درس روحانـــي فـــي الأســـاس، يتعلـــق بـــالله ســـبحانه وتعالـــى، بســـبب أمـــي أحببـــت الله مـــن قلبـــي؛ فهـــي علمتنـــي أنـــه موجـــود دائمًـــا بجانبنـــا، لا يتركنـــا أبـــدًا، وأن الدعـــاء هـــو كلمـــة الســـر للنجـــاة مـــن كل مشـــاكل وآلام الحيـــاة، تعلمـــت مـــن أمـــي أن الدعـــاء قـــادر علـــى إنقـــاذ النـــاس جميعًـــا، وكانـــت تتعجـــب أن الكثيريـــن يجربـــون حيـــلًا كثيـــرة للنجـــاة حيـــن يقابلهـــم موقـــف صعـــب، وينســـون تمامًـــا الدعـــاء، كانـــت أمـــي تدعـــو الله فـــي كل وقـــت، وكانـــت تـــردد جملـــة خالـــدة أصبحـــت أرددهـــا تمامًـــا مثلهـــا: «عمـــري مـــا طلبـــت حاجـــة مـــن ربنـــا ولـــم يعطهـــا لـــي».

نعـــم، أمـــي لـــم تتمـــن شـــيئًا فـــي حياتهـــا ولـــم تحصـــل عليـــه بتوفيـــق مـــن الله، دعـــت الله أن يكـــون زوجهـــا ميســـورَ الحـــال فرزقهمـــا الله معًـــا مـــن وســـع، ودعتـــه أن يكـــون لهـــا بيـــت مســـتقل بعيـــد عـــن جدتـــي التـــي كانـــت تجرحهـــا باســـتمرار وحـــدث ذلـــك، ودعـــت الله أن يكـــون لديهـــا تلفـــاز ملـــون فأصبحـــت مـــن أوائـــل المنـــازل التـــي تمتلـــك تلفـــازًا فـــي بـــولاق الدكـــرور، حتـــى الســـفر بالطائـــرة تمنتـــه أمـــي؛ فســـافرت بالطائـــرة لعمـــل عُمـــرة.

وأنـــا عرفـــت فائـــدة الدعـــاء بســـبب أمـــي، فأصبحـــت

ضيفًا دائمًا على باب الله العظيم، أدعوه في كل لحظة أن يحقق لي ما أتمناه، وهو ما يحدث بفضل الله، علمتني أمي أن أطلب من الله فقط كل ما أتمنى.

واليوم، حين أفتقد وجه أمي أدعو الله أن يجعلها تزورني في الحلم، وهو ما يحدث فعلًا، شكرًا لك يا ست الحبايب.

تعلمت من أمي كذلك حب أولياء الله الصالحين، كنت طفلًا صغيرًا حين زرت مع أمي لأول مرة في حياتي مسجدًا يحوي ضريحًا، وهو مسجد أبو رواش على أطراف القاهرة، كنا يومها نجلس على عربة «كارو» مصنوعة من الخشب ويجرها حمار، والنساء يغنين: «يا أبو رواش حبيتك.. سيبت عيالي وجيتك»، لا أنسى هذه الأغنية أبدًا، ورغم أنني لم أفكر أبدًا في أن أبحث عن شخصية أبو رواش، ولم أهتم حتى اليوم أن أعرف من هو هذا الرجل، إلا أنني وقتها صدقت أمي حين أخبرتني أنه رجل فاضل، وأنه وليٌّ من أولياء الله الصالحين.

بعد ذلك ذهبت مع أمي لزيارة مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة القديمة، ثم بعده مسجد السيد

البدوي بمدينة طنطا بمحافظة الغربية، وآخر مسجد زرته مع أمي كان مسجد السيدة زينب بمنطقة السيدة زينب بقلب القاهرة، كان ذلك منذ سنوات قبل أن تصاب بالمرض، وتصبح غير قادرة على الحركة بسهولة.

اليوم وبعد وفاة أمي أشعر براحة كبيرة حين أذهب إلى مسجد السيد البدوي، وحين أمرُّ من أمام مسجد السيدة زينب أتذكر أمي، ومسجد سيدنا الحسين من المساجد التي ما زلت أحب زيارتها، لكنني أعترف أني نسيت مسجد أبو رواش، شكرًا لهذا الكتاب؛ لأنه ذكرني أن أذهب لزيارة هذا المسجد، سأفعل ذلك بمجرد أن أنتهي من هذا الكتاب بإذن الله.







شرفة لا يغيب عنها نور الله..

حين كان عمري ثماني سنوات تقريبًا، انتقلنا إلى بيت جديد في شارع واسع لا يبعد كثيرًا عن بيتنا الأول، كنت وقتها في فترة الدراسة الابتدائية، لكن كانت المشكلة أن هذا المنزل خالٍ من الشرفات، كان والدي يرى أن الشرفات تأخذ مساحة كبيرة من الغرفة المطلة على الشارع ولا داعي لها؛ لذلك أقام بدلًا من الشرفات نوافذ كبيرة من مادة الألوميتال، لكن أمي لم تحب أبدًا هذه النوافذ، وكانت تقول لنفسها: إنها تتمنى شُرْفة مريحة تجلس فيها، وتتناول الشاي وتنظر للشارع منها.

لم تخبرنا أمي بذلك سوى بعد سنوات طويلة، وكانت تقف ساعات طويلة تنظر للسماء والشارع من هذه النافذة.

مرت سنوات طويلة، ونحن نعيش في شقة

بدون شرفة، لكن قبل وفاة أمي بأعوام قليلة تحدثت أمامنا بأنها حلمت دائمًا بأن يكون لديها شرفة تجلس فيها، فجأة قرَّر أخي «عربي» الاتفاق مع عامل متخصص أن يبني شرفة لأمي، وخلال أيام تم بناء الشرفة، كانت مريحة وجميلة، حين دخلتها أمي لأول مرة ابتسمت، وقالت لنا «أخيرًا بقى عندي بلكونة»، وذكرتنا أن الله سبحانه وتعالى يحقق لها كل أمانيها، لكن وقتها كان تعب الظهر والقدمين بدأ يزيدان على أمي، وبدأت تُجري أكثر من عملية جراحية، تلى ذلك إصابتها بالضغط والسكر وبعض المشاكل في القلب. فلم تستمتع بالشرفة بدرجة كبيرة، كانت تقضي معظم وقتها على السرير نائمة.

الشرفة التي حلمت بها أمي حلمت بها أنا أيضًا، حين اشتريت شقة في مدينة السادس من أكتوبر راعيت أن يكون بها شرفة جميلة، وحتى شقتي التي ما زالت في بيت أمي قمت بعمل شرفة فيها بعد وفاتها، وقد نفذها لي نفس العامل الذي صمَّم شرفة شقة أمي.

شرفتي في بيت أمي مليئة بالنباتات الجميلة،

وبها كرسي هزاز، وعصافير زينة ملونة جميلة لا تتوقف عن الزقزفة، وروح أمي معي في هذه الشرفة لا تغيب عني لحظة واحدة، حين أنظر من الشرفة أرى الشارع الواسع الذي صار مزدحمًا، وأتذكر أمي وحبها لمشاهدة الدنيا الواسعة بكل حب وسعادة.

هل أخبركم بشيء؟ هذا الكتاب قمت بالعمل عليه أثناء جلوسي على مقعدي الهزَّاز في شرفة شقتي في بيت أمي، لم أكتب صفحة واحدة خارج هذه الشرفة، وحين أكون في شقة أمي أحب جدًا دخول الشرفة، والوقوف فيها بعض الوقت، أشم فيها رائحة أمي.

في شرفة شقتي أرى أمي في كل التفاصيل، في زهور نباتاتي، في صوت زقزقة العصافير الملونة، وفي السماء الواسعة التي أراها بوضوح، وحتى في ضوء الصباح الذي يدخل بكل قوة إلى شقتي بدون استئذان، وأطلق عليه مصطلح «نور ربنا»، وهو نفسه المصطلح الذي علمتني إيِّاه أمي الغالية؛ إذ كانت تعتبر أن ضوء النهار أفضل مليون مرة من الضوء الكهربائي، كانت تعتبره نور الله على الأرض.

الحقيقـة لا أعـرف تحديـدًا، هـل أحـب الشـرفة؛ لأنهـا تتناسـب وشـخصيتي المحبـة للبسـاطة، أم لأن الشـرفة كانـت حلمًـا مـن أحـلام أمـي؟ فـي كل الأحـوال لسـت مهتمًـا بمعرفـة الإجابـة، المهـم أن شـرفة شـقتي جميلـة وأرتـاح فيهـا، وتذكرنـي بأمـي وبحبهـا للسـماء والحيـاة، ونورالشـمس الـذي كانـت تعتبـره أمـي نـور ربنـا الـذي هـو أكبـر وأقـوى مـن كل شـيء.





يهده المرض...

لسـنوات طويلـة كانـت أمـي تشـكو مـن ألـم فـي ظهرهـا، لكنهـا لـم تخبرنـا بذلـك أبـدًا، كانـت تصعـد إلـى سـطح بيتنـا فـي الـدور السـابع؛ لتطعـم طيورهـا وهـي تشـعر بألـم شـديد، بدأنـا نلاحـظ تعبهـا حيـن بـدأت تربـط حزامًـا مـن القمـاش حـول وسـطها، قائلـة: إنـه يجعلهـا تشـعر براحـة.

وقتهـا أخذهـا شـقيقي »علي« إلـى طبيـب عظـام متخصـص، فقـال: إن لديهـا مشـاكل فـي الغضـروف، وتحتـاج إلـى عمليـة جراحيـة، لكنهـا رفضـت، وقالـت: إنهـا تسـمع أن مـن يجـري عمليـة الغضـروف يمـوت، أو يصـاب بشـلل ولا يعـود مثلمـا كان أبـدًا، كانـت هكـذا تؤمـن رغـم أن هـذا الـكلام ليـس صحيحًـا بالطبـع.

فـي هـذه الفتـرة توليـت أنـا موضـوع مـرض أمـي، أقنعتهـا بـأن العمليـة مهمـة لهـا ويجـب أن تجريهـا،

أخذتها لأطباء كثر، جميعهم اتفقوا على وجوب إجراء العملية، وقمنا بها بالفعل، لكن لم تتحسن حالة أمي، بل على العكس بدأت تسوء.

قال الأطباء: إن السبب هو وزنها الزائد، الذي جعل الفقرات القطنية تضغط على القناة العصبية، وأنها تحتاج لعملية أخرى، لكن أمي رفضت ذلك بشدة.

في هذه الفترة أصيبت أمي بمرض السكري، وبدأت تأخذ حقن الإنسولين كعلاج، ثم أصيبت بالضغط، وبعده بمشاكل في القلب، بدأ الأمر من وجهة نظري وكأن المرض ينتقم منها، ولا يريد أن يتركها لحظة واحدة، لكنها كانت تتقبله بكل رضا مثلما كانت تتقبل كل ما يعطيه الله لها بكل حب.

في هذه الفترة اتصلت بي شقيقتي»نوال« وهي تصرخ، أخبرتني أن أمي تموت، أسرعت إلى شقة أمي بكل خوف، حين وصلت وجدت أمي على سريرها وكأنها تعاني من سكرات الموت، كانت غير قادرة على الكلام، لم أكن أفهم ما يحدث لها، أخذتها إلى القصر العيني، وهناك علمت أنها تعاني من جلطة.

ظلت أمي شهورًا غير قادرة على الحركة، وحتى الكلام كانت تقوم به بصعوبة بالغة، لكننا لم نتركها أبدًا، كنا حولها دائمًا، ننتقل من طبيب إلى آخر، ومن عيادة إلى مستشفى، ومن معمل تحاليل إلى مركز للأشعة.

الحقيقة أن أمي عانت كثيرًا في آخر سنوات من عمرها، اختبرت أغلب أنواع المرض، وغابت عنها الراحة بينما التصق بها الألم.

ماتت أمي صباح يوم 25 يونيو من العام ٢٠١٨، في إحدى مستشفيات منطقة المهندسين بمحافظة الجيزة المصرية، وذلك بعد إجرائها لعملية قال لي الأطباء وقتها أن اسمها هو: «توسيع للقناة العصبية القطنية مع تثبيت للفقرات القطنية»، وهو اسم معقَّد وطويل يشبه بدرجة كبيرة رحلة أمي مع المرض.

كانت أمي رافضة لتلك العملية، لكني أقنعتها بأهميتها، وبأنها يمكن أن تنهي ألمها الذي استمر لسنوات عديدة، لكن حينها كانت أمي تنظر لي بألم واضح دون أن تتكلم، وكأنها كانت تريد أن تخبرني أنها تشعر أن العملية ستكون نهايتها، لكني لم أفهم وقتها ما كانت تخبرني به عيناها، أو ربما

كانـت رغبتـي فـي أن أقـف بجانبهـا، وألا أتركهـا للألـم أقـوى بكثيـر.

بعـد انتهـاء العمليـة خـرج لـي الطبيـب المعالـج، وأخبرنـي أن العمليـة انتهـت وأن أمـي بخيـر، وأنهـم ينتظـرون فقـط أن تفيـق مـن تأثيـر البنـج، شـعرت بسـعادة كبيـرة وحمـدت الله، لكـن سـاعات طويلـة مـرت دون أن تفيـق أمـي، أدخلوهـا غرفـة العنايـة المركـزة، وسـاعدتهم بنفسـي علـى ذلـك. هنـاك نظـرت لوجههـا وشـعرت برعـب كبيـر، لـم أكـن أعلـم أن هـذه هـي آخـر مـرة سـأرى وجـه أمـي فـي حياتـي.

طلـب منـي الأطبـاء الخـروج مـن الغرفـة، فخرجـت، مـرت عـدة سـاعات كنـت أسـمع شـقيقتي الصغـرى «نجـلاء» تـردد جملـة وحيـدة، وهـي تبكـي: «عليـه العـوض ومنـه العـوض»، علمـت شـقيقتي أن أمـي سـترحل، كنـت أقـول لهـا: إنهـا سـتكون بخيـر، وأن العنايـة المركـزة أمـر عـادي بعـد العمليـات، لكنهـا لـم تقتنـع وكانـت تـردد نفـس الجملـة: «عليـه العـوض ومنـه العـوض».

فـي نهايـة هـذا اليـوم، أرسـل لـي الطبيـب الـذي أجـرى العمليـة لأمـي شـخص يطلبنـي فـي المكتـب

الإداري للمستشـفى فـي الطابـق الأرضـي، ذهبـت إليـه، جلسـت معـه فـي المكتـب، ووجـدت هنـاك عـدد كبيـر مـن الأطبـاء، أخـذ يتحـدث معـي أنهـم فعلـوا مـا بوسـعهم، وأنهـم اضطـروا لوضـع أمـي فـي العنايـة المركـزة، فهمـت مـن حديثـه أنـه سـيطلب منـي مبلغًـا ماليًّـا أكثـر مقابـل غرفـة العنايـة المركـزة، فأنـا أعلـم أنهـا مكلفـة، فوجـدت نفسـي أقـول لـه بـكل سـذاجة: إنـه لا مشـكلة، وإنـي سـأدفع أيَّ مبلـغ إضافـي تحتاجـه المستشـفى، نظـر لزملائـه، وكأنـه يقـول لهـم: «إنـه لـم يفهـم بعـد».. فجـأة قـال لـي بشـكل مباشـر: «البقـاء لله يـا مصطفـى، والدتـك توفيـت»، وجـدت نفسـي أصـرخ وأقـول لـه: إننـي مـن أقنعهـا بالعمليـة، وأن هـذا معنـاه أننـي مـن قتلهـا، «أنـا اللـي موتتها،هـي كانـت رافضـة العمليـة، طيـب خـلاص مـش عاوزيـن نعمـل العمليـة دي».

لـم أصـرخ فـي حياتـي مثلمـا صرخـت فـي هـذا اليـوم، صـراخ غريـب جعـل حتـى موظفـي المستشـفى ـ والمفتـرض أنهـم معتـادون علـى سـماع نبـأ المـوت ـ يشـفقون علـي، وبعضهـم بـدأ يأخذنـي فـي حضنـه.

ماتـت أمـي فـي هـذا اليـوم وتركتنـي لأصعـب

مرحلة في حياتي، مرحلة اكتئاب وخوف من الحياة، وحنين إلى وجهها الجميل.

لكني لن أنسى كل تفاصيل هذا اليوم، وأول تلك التفاصيل يتعلق بالغراب الأسود الذي وقف على نافذة غرفة أمي في المستشفى قبل ذهابها إلى غرفة العمليات مباشرة، وحينذاك نظرت له أمي وقالت له: عاوز مني إيه؟ تعجبت حينها من أن أمي تتحدث مع الغراب، في الحقيقة تعجبت أكثر من وجود هذا الغراب على نافذة غرفة أمي، من أين جاء، ولماذا تحدثت معه أمي؟

الغراب في التراث الثقافي المصري نظيرشؤم، لكن أمي لم تكرهه في حياتها، أحبته مثلما أحبت كل الكائنات. هل تمثَّل لها ملاك الموت في هيئة غراب مثلما قالت لي شقيقتي؟ لا أعلم، لكني واثق أنها حتى حين شاهدته على نافذة غرفتها في المستشفى لم تكن تنظر له بكراهية، فقط بدت وكأنها تترجاه أن يتركها معنا، هي كانت تحبنا أكثر من حبها للحياة، وكثيرًا ما كانت تقول لنا: إنها تتخوف من أن نتعب في حياتنا من بعدها.



بيجو «٥٠٤»..
سفرٌ آخر للجنة..

لدينا سيارة قديمة من نوع بيجو (504) اشتراها والدي منذ سنوات طويلة، لكن هذه السيارة لم توصل أمي إلى المستشفى لإجراء عمليتها الأخيرة، بل فعلت ذلك سيارة أحمد سائق التاكسي الشاب الذي كنت أستعين به في كل مشاويري، والذي كان سببًا وجيهًا في أنني لم أشتر سيارة حتى اليوم.

أحببت أحمد سائق التاكسي، واعتبرته أخًا لي، وليس مجرد سائق استعين به في مشاويري، وحبي لأحمد انتقل لأمي؛ إذ كانت تحترمه وتعتبره «ابن حلال».

كنت قد اتفقت مع أحمد على أنني أحتاجه لتوصيل أمي إلى المستشفى؛ لأنها ستجري عملية جراحية، كانت أمي تحب أحمد، وتعتبره ابنًا لها. جاء السائق في الموعد المحدد، وساعدنا أمي

على النزول من شقتنا في الطابق الثاني عن طريق مقعد بلاستيكي جعلناها تجلس عليه وحملناه، لكنني لم أحمل هذا المقعد مع من حملوه، أتذكر جيدًا أن من حمل أمي هو أحمد نجل شقيقي الكبيرعلي، ومحمد ابن قريبي عبد الباسط مالك المقهى الشعبي الملاصق لبيتنا في بولاق الدكرور، وساعدهم شقيقي عربي.

أمام المنزل وبالقرب من سيارة السائق أحمد جلست أمي تتحدث مع أحمد ومحمود ومحمد أبناء شقيقي علي، عرفت فيما بعد أنها كانت توصيهم بأبيهم خيرًا، وتطلب منهم أن يكونوا أقوياء في الحياة، وأن يدعون لها بأن تعود بالسلامة.

جلست أمي في المقعد الأمامي من سيارة السائق أحمد، بينما جلست أنا في المقعد الخلفي بجانب شقيقتي نجلاء، كنت طوال الطريق أحاول أن أطمئن أمي أنها ستكون بخير، وأن هذه العملية سترحمها من الألم الشديد الذي كانت تعاني منه، لكنها لم تكن ترد، تقريبًا كانت تعلم أنها فعلًا ستستريح من الألم، لكن المقابل سيكون أنها

ستتركنا، وهي كانت تحبنا بجنون، وتخاف علينا ولا تريد أن تتركنا أبدًا.

لم تكن أمي تخشى الموت أبدًا، لكنها كانت تخشى أن تتركنا، كانت ترى أننا سنتعب من بعدها، وكان هذا سر تمسكها بالحياة.

حين وصلنا المستشفى طلبت من موظف الاستقبال مقعدًا متحركًا لتجلس عليه أمي، وبعد بعض الإجراءات الروتينية توجهنا إلى الغرفة، وضعناها على السرير المريح، وجلست أنا وشقيقتي الصغرى نجلاء على أريكة مريحة كانت أسفل نافذة تطل على حديقة المستشفى، هي نفسها النافذة الذي زارها الغراب صباح يوم العملية.

تحدثت مع أمي في موضوعات عديدة، وأوصتني على أشقائي وشقيقاتي، خصوصًا شقيقي الأصغر رمضان الذي يعاني من مرض الصرع، وشقيقتي نجلاء التي كانت تواجه عدة مشاكل مع زوجها، وتشعر بعدم سعادة معه.

قي هذه الليلة جاءت عدة ممرضات؛ لأخذ عينات دم من أمي، وكانت أمي تكره الإبر بدرجة

كبيرة؛ لذلك كانت تصرخ وتقول بلغة صعيدية محببة للنفس: «كفاية شكشكة فيا»، حين انتهى اليوم غطت أمي في النوم، ونامت شقيقتي نجلاء على الأريكة، بينما نمت أنا على الأرض، وشغلت هاتفي على مسلسل إذاعي للسيدة فاتن حمامة وهو المسلسل الإذاعي: «أفواه وأرانب» والذي تحوَّل فيما بعد إلى فيلم سينمائي يحمل نفس الاسم، فأنا لا أستطيع النوم دون الاستماع لمحتوى إذاعي.

ما أتذكره جيدًا أنني لم أشعر بأيِّ خوف في هذا اليوم، كان قلبي مطمئنًا جدًا، إحساس عميق لا أعرف مصدره بأن أمي ستستريح من الألم، وأن تلك العملية ستعيدها لنا أفضل.

عند الفجر طلبوا منا أن نجهز أمي للعملية، ساعدناها على ارتداء الملابس الزرقاء، وجاء فريق تمريض وأخذها على سرير متحرك إلى غرفة العمليات، وبعدها جلست أنا وشقيقتي نجلاء نتحدث حول أمور عديدة.

حين توفيت أمي تم لفها في ملاءة ناصعة البياض، وحملها شقيقي «عربي» على قدميه في

المقعد الخلفي لسيارتنا البيجو البيضاء، بدا المشهد يومها وكأن سيارتنا البيجو المعروفة بأنها أشهر وسيلة مواصلات تنقل المصريين أثناء سفرهم بين محافظات الصعيد، اختارتها أمي كي تنقلها إلى حياتها الأخرى، إلى السماء.

حين وصلنا إلى منزلنا في بولاق الدكرور وجدت عشرات البشر في انتظارنا أمام المنزل، لا أعرف من أخبر كل هؤلاء أن أمي ماتت فقرروا انتظارها، بدأ الصراخ، الزحام، صعدت إلى شقتنا أبكي، بينما كانت شقيقتي «نوال» تمر بحالة جنون هستيري وتضربني بقوة، وتقول لي: «أنت السبب، أنت من موتها»، وهو نفس ما ردده شقيقي»رمضان»، لكني أبدًا لم أغضب منهما، كنت أشعر بهما، أو ربما كنت أشعر حينها أن لديهما حق في اتهامي بذلك، فأنا من أصرَّ على أن تجري أمي هذه العملية، وأنا من دفع كافة المصاريف.

في هذا الوقت لم تكن زوجتي أو أبنائي عيسى ويحيي في البيت، كانوا في رحلة إلى والد زوجتي في قرية الهيشة بمحافظة سوهاج بصعيد

مصر، وحين علمت زوجتي بوفاة أمي اتصلت بي وأخبرتني أنها قادمة، لكني طلبت منها ألا تأتي، لم أكن أرغب في أن أراها، أو أرى أولادي وقتها، كنت أريد أن أكون بمفردي في الشقة هذه الفترة.

قضت أمي ليلة في غرفتها في شقتها، وفي صباح اليوم التالي قمنا بالصلاة عليها في المسجد المقابل لبيتنا، وبعدها توجهنا إلى المدفن الذي كنا قد اشتريناه قبل موتها بأسابيع قليلة بتشجيع منها لوالدي، سبحان الله وكأنها كانت تعلم أنها ستدفن فيه.

أثناء توجهنا لدفنها في مدفننا بطريق الفيوم كان حول سيارتها عشرات السيارات والدراجات البخارية، كأنها زفة عروسة إلى الجنة، من أين جاء هذا العدد الضخم من الناس؟ كنت أنا مع أمي داخل السيارة التي بها الصندوق الذي كانت أمي داخله، كنت أقرأ لها بعض آيات القرآن، وأدعو لها بأن يرحمها الله ويغفر لها.

حين وصلنا المدفن طلبوا مني النزول معها، فعلت ذلك وأنا خائف، لم يحدث في حياتي أن

رأيت قبرًا من الداخل، وضعوا جثمان أمي وخرجنا من القبر، عدنا إلى البيت، لا أتذكر ما حدث بعد ذلك، فقط أتذكر أن العزاء كان ضخمًا جدًا، وعدد الناس مذهل، مئات البشر يأتون ويذهبون، كنت أردد فقط: «وداعًا يا أمي.. وداعًا يا ست الحبايب».







رايحة فين يا حاجة
يا أم شال قطيفة..

قبل وفاة أمي لم أزر قبر في حياتي، فأنا شخص محب للحياة، وكنت أعتبر زيارة القبور عكس هذا المبدأ، لكن الحقيقة أنه بعد وفاة أمي أصبحت أحب زيارة قبرها، وهناك لا أبكي أبدًا، بل أشعر بسعادة كبيرة، منذ وفاتها لا يمر شهر دون أن أزور قبرها.

لدرجة أن بعض عمال المقابر الذين يتواجدون هناك باستمرار باتوا يعرفونني جيدًا، اتفقت مع أحد الشباب هناك واسمه «يوسف» أن يزرع لي نباتات كثيرة أمام قبر أمي، وأن يرويها بشكل مستمر، واليوم كبرت النباتات، وأصبحت جميلة تنشر طاقة إيجابية حقيقية في المكان.

أحمد سائق التاكسي الذي كان معي دائمًا أثناء مرض أمي هو نفسه الذي يوصلني بسيارته إلى

قبـر أمـي، نجلـس هنـاك بعـض الوقـت، أدعـو لأمـي وأقـرأ لهـا الفاتحـة، وكل مـرة أذهـب لقبرهـا أشـعل عـودًا مـن البخـور طيـب الرائحـة، وأنظـر للعصافيـر الجميلـة التـي تتجمـع فـوق القبـر، وكأنهـا تعـرف أننـا أتينـا لنـا بطعامهـا مـن الحبـوب.

قبـر أمـي لـه حكايـة جميلـة، هـي مـن طلـب مـن والـدي أن يشـتريه، وحـدث ذلـك قبـل وفاتهـا بفتـرة قصيـرة، وكأنهـا كانـت تعلـم أنهـا سـترحل عنـا قريبًـا، القبـر عليـه زخـارف جميلـة، ولـه بـاب حديـدي مضيـاف تشـعر وأنـت تمـر منـه أنـه يرحـب بـك مثـل بـاب شـقتنا.

رائحـة عـود البخـور الـذي أشـعله بمجـرد وصولـي لقبـر أمـي تجعـل المـكان أقـرب لبيـت ريفـي جميـل ونظيـف عطـر الرائحـة، وليـس مجـرد قبـر.

فـي كل مـرة أزور قبـر أمـي أشـعر براحـة نفسـية شـديدة، وكأننـي بالفعـل قابلـت أمـي، أتذكـر أن الشـاب يوسـف الـذي يسـقى النباتـات أمـام القبـر قـال لـي مـرة: «والله أنتـم فيكـم البركـة، تأتـون لزيـارة أمكـم دائمًـا»، يومهـا شـعرت أن أمـي فخـورة وسـعيدة بمـا قالـه لـي يوسـف، وكأنهـا تريـد أن تقـول لـه: «هـؤلاء هـم أولادي،

وأنـا ربيتهـم علـى الحـب والخيـر».

أعتـرف أننـي أصبحـت أحـب زيـارة قبـر أمـي، وأشـعر بسـعادة كبيـرة حيـن أزورهـا.

أجـد نفسـي أردد هنـاك: روحتـي فيـن يـا حاجـة.. يـا أم شـال قطيفـة؟ لكننـي لا أسـمع الإجابـة بصوتهـا قـط، فقـط أشـعر بأنهـا فـي مـكان أجمـل، مناسـب أكثـر لروحهـا الطيبـة، مـكان ترتـدي فيـه كل شـيلانها القطيفـة التـي سـبق وتبرعـت بهـا لفقـراء فـي حياتهـا.







بعد الألم.. أمل..

بعد وفاة أمي بنحو عشرة أيام، عدت إلى عملي مجددًا، لكني لم أكن نفس الشخص الذي كان قبل وفاتها، لن أنسى أبدًا أول يوم توجهت فيه لمقر عملي في منطقة المعادي بالقاهرة بعد فقد أمي.. كنت جالسًا على مقعد في إحدى عربات مترو أنفاق القاهرة، علمت وقتها أنني لست على مايرام لكني لم أفهم ما الذي أمر به، وجدت نفسي أنظر للناس من حولي ولسان حالي يقول: من أنتم؟ لماذا تتحدثون وتضحكون وأنا بينكم، ألا تعلمون أنني فقدت أمي؟

حين وصلت إلى العمل شعرت أنني غريب، زملائي أظهروا حزنهم أمامي لنحو ساعة، وبعدها كل شخص عاد لحياته الطبيعية، هناك من يضحك، ومن يغني، ومن يستعد لطلب طعامه بالهاتف

من أحد المطاعم، شعرت أنني وحيد لأول مرة في حياتي، وأنا الشخص الذي كان يعرفه الجميع بابتسامته الدائمة.

لي زميلة عزيزة تدعى دينا، أعتبرها قريبة مني إلى حد كبير، رغم أننا لا نبدو أصدقاء مقربين أمام زملائنا في العمل، القرب الذي أقصده هنا هو قرب نفسي أكثر منه قرب اجتماعي، تفهمني وأفهمها حتى من دون أن نتكلم، طلبت من دينا أن نتحدث بمفردنا، أخبرتها برغبتي في أن أترك العمل؛ لأني لم أعد مرتاحًا في الشركة، بكل ذكاء أخبرتني دينا أنني لست على مايرام، وطلبت مني ألا أتخذ أيَّ قرارات في هذه الفترة، وأنهت كلامها بجملة لن أنساها: «مصطفى، أنت تمر بفترة اكتئاب، لا تترك نفسك للحزن، أنقذ نفسك».

لفتت نظري دينا إلى أنني بالفعل مكتئب، وأشعر بألم شديد بسبب فقد أمي، قررت يومها أن أبحث عن طبيب نفسي، وساعدني الإنترنت في الوصول إلى الطبيب المصري عمرو عزمي، وذهبت له في عيادته بحدائق المعادي، بدأت مع هذا الرجل رحلة التعافي التي استمرت عدة أشهر،

لكنني شعرت بتحسن ملحوظ بداية من الأسبوع الثالث لمقابلتي له، كانت خطة العلاج عبارة عن تناول علاج دوائي بشكل يومي، مع جلسات علاج نفسي أسبوعية.

كلفني الأمر مبلغًا ماليّا ليس بالقليل، لكني اشتريت به نفسي وحياتي، أنقذت نفسي كما طلبت مني زميلتي دينا، في الحقيقة أنا مدين للطبيب «عمرو» بالكثير من الأشياء الإيجابية في حياتي، هذا الرجل أنقذني، قبل الذهاب إليه وبدء رحلة العلاج كنت أنظر للمرآة وأشعر أنني شخص غريب، عجوز، بملامح لا أعرفها، لكن بعد بدء العلاج عدت مصطفى الشاب المرح البسيط الذي لديه أحلام عديدة بحجم السماء.

خلال فترة علاجي النفسي من فقد أمي، بدأت رحلة بحث أخرى لفهم الحياة أكثر، قرأت كتبًا، ترجمت دراسات علمية، شاهدت أفلامًا، جميعها يهدف لفهم نفسي وحياتي ومستقبلي، قررت أن أحارب ألم الفقد وأتحداه، والحمد لله نجحت في ذلك.

في كتابها المهم «في البرية» حكت الكاتبة الأمريكية شيريل سترايد عن تجربتها الحقيقية مع

الحـزن، خـلال إدمانهـا الهيرويـن والجنـس، وتحولـت حياتهـا إلـى جحيـم بعـد وفـاة والدتهـا التـي كانـت تحبهـا بجنـون، لكـن برغـم حالـة الحـزن التـي كانـت تمـر بهـا الكاتبـة، فقـد قـررت أن تسـير علـى قدميهـا فـي رحلـة فـي البريـة عـدة أسـابيع لتقطـع مسـافة ١١٠٠ ميـل سـيرًا وحدهـا، بهـدف إعـادة اكتشـاف نفسـها وتتعلـم كيفيـة التعامـل مـع حزنهـا، وحيـن انتهـت رحلتهـا القاسـية تعلمـت أن الحـزن يمكـن أن يكـون أكبـر معلـم لنـا لـو أدركنـا كيـف نتعامـل معـه بشـكل مختلـف.

اكتشـفت شـيريل التـي تحـول كتابهـا إلـى فيلـم ناجـح قامـت ببطولتـه الممثلـة ريـس ويذرسـبون، وحمـل اسـم Wild (إنتـاج عـام ٢٠١٤)، أن الحـزن نفسـه لـم يكـن عدوهـا الحقيقـي، أو السـبب فـي كل مـا مـرت بـه، بـل كان العـدو الحقيقـي لهـا هـو عـدم تقبلهـا لـه، وخوفهـا منـه.

«لـن أسـمح للحـزن أن يقتلنـي، سـأتقبله أمـرًا واقعًـا يحـدث لجميـع البشـر، وسـأبدأ حيـاة جديـدة بـكل قـوة وتحـدٍ»، هـذا مـا وصلـت إليـه الكاتبـة بعـد مغامـرة صعبـة فـي البريـة.

مثل شيريل ستـرايد بـدأت رحلـة لاكتشـف نفسـي بعـد وفـاة أمـي، لكنهـا رحلـة مختلفـة، اتفقـت مـع ناشـر كتبـي الصديـق العزيـز «محمـد القطَّـان» أن أعمـل فـي العـام ٢٠١٩ علـى كتـاب عـن سـائقي التوكتـوك فـي شـوارع القاهـرة، رحَّـب الرجـل بشـدة بالفكـرة، وطلـب منـي أن أبـدأ العمـل علـى هـذا المشـروع فـورًا، لكـن مـا لـم يعرفـه الأسـتاذ محمـد وقتهـا هـو أن كتـاب «سـواق توكتـوك» كان رحلـة لاكتشـاف ذاتـي مـن خـلال قصـص النـاس، وأنـه كان رحلـة هدفهـا العـلاج مـن الضيـق والاكتئـاب.

لعـدة أشـهر ركبـت مـع سـائقي توكتـوك فـي شـوارع وحـواري القاهـرة، فـي بـولاق الدكـرور، والمطريـة، والعمرانيـة، والجيـزة، وحدائـق الأهـرام، وإمبابـة، وأرض اللـواء، (جميعهـا مناطـق فـي القاهـرة)، حـاورت هـؤلاء السـائقين عـن حكاياتهـم مـع مهنتهـم، اسـتمعت لقصصهـم الإنسـانية، فـي الحقيقـة كانـت رحلـة لاكتشـاف نفسـي، وليـس فقـط لاكتشـاف قصصهـم هـم.

خـرج الكتـاب للنـور، وحقـق إشـادات إيجابيـة إلـى حـد كبيـر باعتبـاره الأول مـن نوعـه الـذي يوثـق

لحياة سائقي التوكتوك في القاهرة، لكن الحقيقة أن الكتاب كان رحلة تشبه رحلة مؤلفة كتاب «في البرية»، لكن على طريقتي أنا.

كتاب «في البرية» ليس الوحيد الذي يهدف لتوضيح صورة مختلفة وغير شائعة عن الحزن، فهناك مقالات عدة قرأتها تحاول أن تبسط لنا هذا الموضوع، منها المقال الذي كتبته جين برودي التي تكتب في مجال الصحة الذاتية لمصلحة موقع The New York Times، منتصف العام ٢٠١٨، نفس العام الذي توفت فيه أمي، حمل المقال عنوان «Understanding Grief» أو «فهم الحزن».

في مقالها اعتبرت برودي أن البشر بصفة عامة يدركون أن الموت نهاية طبيعية للجميع، لكن رغم ذلك لا يعرف أغلبنا الكثير عن كيفية التعامل مع ما يحدث لنا حين يموت شخص عزيز علينا، في إشارة إلى حالة الحزن التي ندخل فيها، ويمكن أن تحول حياتنا إلى كابوس.

تلفت الكاتبة في مقالها النظر لكتابين مهمين لاثنين من المتخصصين في الطب النفسي، لم

تتم ترجمتهما إلى العربية حتى الآن للأسف، رغم أهميتهما، فهما يتضمنان الكثير من الموضوعات حول كيفية التعامل مع حالات الحزن التي تصيبنا حين نفقد صديقًا مقربًا، أو أحد أفراد أسرتنا.

الكتاب الأول يحمل عنوان: «إنه أمر طبيعي ألا تشعر أنك بخير»، وهو من تأليف الطبيبة النفسية ميغان ديفين، التي لم تكتب كتابها هذا من فوق برج عالٍ، بل هو خلاصة تجربتها بعد فقد زوجها الذي مات غرقًا وهو في عمر التاسعة والثلاثين، حين كان الزوجان في إجازة.

أما الكتاب الثاني فيحمل عنوان: «عما يفعله الحزن بنا.. قصص عن الحياة والموت، وكيفية البقاء على قيد الحياة»، وهو من تأليف: جوليا صموئيل، وهي طبيبة نفسية بريطانية.

الرسالة المشتركة في كلا الكتابين هي أن الحزن أمر يحدث للجميع، ولا يمكن أن نلوم أنفسنا لو تعرضنا له، بل على العكس يجب تقبله، سواء كنا نحن من نمرُّ به، أو كان هناك شخص آخر قريب منا يواجهه.

يختلف الكتابان في الأسلوب، لكنهما يتفقان

في المنهج الذي يتعاملان به مع الحزن، باعتبار أن خسارة شخص نحبه يعد تجربة يمرُّ بها كل البشر في كل زمان ومكان، والهروب من الحزن ليس حلًا، بل الأفضل فهمه جيدًا.

في كتابها، تنصحنا الطبيبة جوليا صموئيل بفهم حقيقة أنه يجب ألا يحاول الأصدقاء أو العائلة أن يسرعوا من عملية التخلص من الحزن لدى شخص يمر به؛ فرغم أن وجودهم في حياة ذلك الشخص يمكن أن يكون داعمًا بشكل ما، ومساهمًا في تخفيف آلام الشخص الحزين، فإن التخلص من الحزن يمكن أن يستغرق وقتًا أطول بكثير مما يظن معظم الناس.

إذًا، فلا داعي للقلق إذا وجدنا شخصًا عزيزًا علينا يعاني الحزن بعد فقد عزيزعليه لفترة طويلة، كما لا ينبغي أن نقلق إذا كنا شخصيًا نمر بنفس الحالة لو فقدنا شخصًا نحبه.

الكاتبة نفسها مرت بفترة حزن طويلة حين فقدت أمها عندما كان عمرها ستة عشرعامًا، وتتذكر أن الكثير من المقربين منها كانوا يعتبرون حزنها أمرًا «غير طبيعي» على اعتبار أن أمها كانت مصابة

بالسـرطان وتعانـي عذابـه، وبالتالـي كان يظـن هـؤلاء النـاس أنـه يجـب علـى الطبيبـة ـ الفتـاة وقتـذاك- أن تسـعد؛ لأن المـوت رحـم أمهـا مـن كل الألـم الـذي كانـت تمـر بـه، لكـن الأمـر اسـتغرق مـن الكاتبـة حوالـي العـام حتـى اسـتطاعت تقبـل الأمـر، والخـروج مـن حالـة الحـزن.

أمـا الكتـاب الـذي ألّفتـه «ديفيـن» فيـرى أن معظـم الدعـم النفسـي لحـالات الحـزن الـذي يقـوم بـه الكثيـر مـن الأطبـاء والمعالجيـن النفسـيين يسـتخدم منهجًـا خاطئًـا، مـن خـلال الضغـط لتشـجيع مـن يعانـون الحـزن علـى التغلـب عليـه سـريعًا، وهـو نفـس مـا يطلبـه منهـم الأصدقـاء وأفـراد الأسـرة.

«ألـم الحـزن لـن ينتهـي سـريعًا، ولـو حاولتـم الضغـط كثيـرًا علـى مـن يمـر بـه؛ فهـذا سـيخلق مزيـدًا مـن المشـاكل فـي المسـتقبل، طريقـة النجـاة مـن الحـزن هـي السـماح للألـم بالوجـود، حتـى ينتهـي وحـده». تقـول ديفيـن فـي كتابهـا.

وبـدلًا مـن محاولـة «عـلاج» الألـم، يجـب أن يكـون الهـدف هـو تقليـل المعانـاة؛ إذ مـن يمـر بحالـة حـزن لا يريـد أن يشـعر مـن الآخريـن أنهـم متضـررون مـن

حزنــه، ويريدونــه أن يتخلــص منــه ســريعًا، بــل يريــد أن يشــعر أنهــم يشــعرون بــه، ويؤمنــون أنــه لا يقصــد أن يكــون حزينًــا بشــكل متعمــد، بــل هــذا يحــدث رغمًــا عنــه، وقتــذاك ســيقل الحــزن فعــلًا ومــن دون ضغــط.

يتفــق الكتابــان علــى أن التعامــل مــع شــخص حزيــن هــو بالوجــود معــه دائمًــا، والاســتماع لــه حيــن يحــب أن يتحــدث عــن ســبب حزنــه، مــن دون مقاطعتــه، أو الضغــط عليــه للتوقــف عــن الحــزن.

أمــا لــو كنتــم لا تجــدون - أو لا تســتطيعون- أن تحكــوا أســباب حزنكــم إلــى إنســان آخــر؛ فهنــاك أفــكار أخــرى منهــا شــراء مفكــرة وكتابــة كل مــا تريــدون علــى صفحاتهــا.

مــن الممكــن أيضًــا أن ترســموا لوحــات تمثــل مشــاعركم، ومــن المفيــد لكــم البــدء فــي تأليــف قصــة تحــوي كل مخاوفكــم، ومــن الممكــن أن تخرجــوا إلــى مــكان يحــوي أشــجارًا ونباتــات خضــراء، وتتحدثــون معهــا وكأنهــا أصدقــاء لكــم، وثقــوا أنهــا ستســمعكم بــكل حــب، ولــن تقاطعكــم أبــدًا.

أنــا جربــت النصائــح الســابقة فــي رحلــة التعافــي مــن

ألـم فقـد أمـي، ووجدتهـا مفيـدة ومهمـة، أنـا أحدثكـم عـن تجربـة، وليـس مـن فـوق بـرج عـالٍ.

جميـل أن نعيـش فـي سـعادة وبـدون حـزن، لكـن لـو تعرضنـا لموقـف فـي حياتنـا تسـبب بإصابتنـا بحالـة حـزن؛ فيجـب أن نتعامـل مـع الأمـر بحكمـة، ونـدرك أن التخلـص مـن هـذه الحالـة يجـب أن يتـم بهـدوء، وبـلا ضغـوط، فيكفـي الضغـط الـذي يسـببه لنـا الحـزن.





ولهذا كله رسمت «أمي» على ذراعي...

مساء يوم ٣١ أغسطس من العام ٢٠٢٠، كنت أجلس على مقعد حديدي مستدير، له قاعدة مريحة إلى حد ما، مبطنة بالإسفنج ومغلفة بقماش نبيتي اللون عليه زهور مبهجة، كنت أنظر للشاب الوسيم ذي الأذرع العارية المليئة بالرسومات الغريبة.

الشاب أخبرني في البداية أن اسمه هو «الديزل»، لكن بعد أن أصبحنا أصدقاء عرفت أن اسمه الحقيقي هو «مينا»، شاب مصري يعيش في حي شبرا، ويكسب قوته من رسم الوشم.

تعرفت على «مينا» قبل لقائنا هذا بأيام قليلة عبر الهاتف، وجدت رقمه على شبكة الإنترنت حين كنت أبحث عن شخص متخصص في رسم الوشم.

طلبت من «مينا» أن يكتب على ذراعي الأيسر كلمة أمي بحبر أسود اللون، لا يختفي مهما مرت السنون، وافق الشاب على أن يأتي لي في شقتي القديمة في البيت الذي تربيت به في بولاق الدكرور، وهو نفس البيت الذي ربتني فيه أمي، وعاشت فيه سنوات طويلة من حياتها، وخرجت منه إلى قبرها ذات يوم حزين من أيام العام ٢٠١٨.

جلس «مينا» على حرف السرير يتحدث معي ويستفيض، قبل أن يخرج أداة رسم الوشم من حقيبة صغيرة كانت معه، ويطلب مني أن أوصله بالتيار الكهربائي، وحين أخبرته أنني أعاني من فوبيا من الحقن طمئنني قائلًا: إن عملية رسم الوشم سهلة، ولا تأخذ أكثر من عشرة دقائق، واصفًا الألم الذي سأشعر به بأنه مجرد «خربشة» بسيطة على الجلد.

أمسك «مينا» ذراعي الأيسر، ووضع مادة سائلة على جلدي، قال لي: إنها مخدر موضعي، وبعد دقائق بدأ في رسم كلمة أمي على ذراعي من الأعلى، في هذه اللحظة أغمضت عيني.

حين انتهى «مينا» من مهمته، نظرت إلى كلمة أمي على ذراعي بسعادة كبيرة؛ فرغم أنني لست

من هواة الوشم، إلا أن هذه الرسمة بالذات على ذراعي جاءت متسقة مع عشقي لأمي، كنت في حاجة لأن أكتب هذه السيدة على جسدي، مثل سجين في أحد السجون المصرية يكتب اسم حبيبته بمواد بدائية بسيطة رخيصة.

لكن ما لم يعلمه «مينا» حينها، هو أن العشر دقائق التي احتاجها هو لكتابة كلمة «أمي» على ذراعي، مرت بالنسبة لي وكأنها أربعون عامًا، وهم عمري وقتها، تذكرت تفاصيل وحكايات عديدة عن أمي، وقررت أن أصنع عنها كتابًا، أوثق في صفحاته سيرتها الطيبة.. سيرة الحب.. وأكتب فيه كل ما أريد لهذا العالم أن يعرفه عنها.. عن أمي.



الفهرس

عن الكاتب

مصطفى فتحي؛ كاتب وصحافي مصري، مهتم بكتابة القصص والتحقيقات الإنسانية، صدرت له عدة كتب، منها: «هوم دليفري» الذي يوثق لقصص العاملين في مهنة توصيل الطعام للمنازل، و «سواق توكتوك» الذي يتناول حكايات سائقي التوكتوك في شوارع وحواري القاهرة.

حصل على جائزة من شبكة الصحفيين الدوليين، وكرمته نقابة الصحفيين المصريين، حصل على الماجستير في الصحافة الإلكترونية، وزمالة من المركز الدولي للصحفيين بواشنطن.

للتواصل مع الكاتب: mostafathi@yahoo.com



Tel :(+2) 01288890065

www.shams- group.net